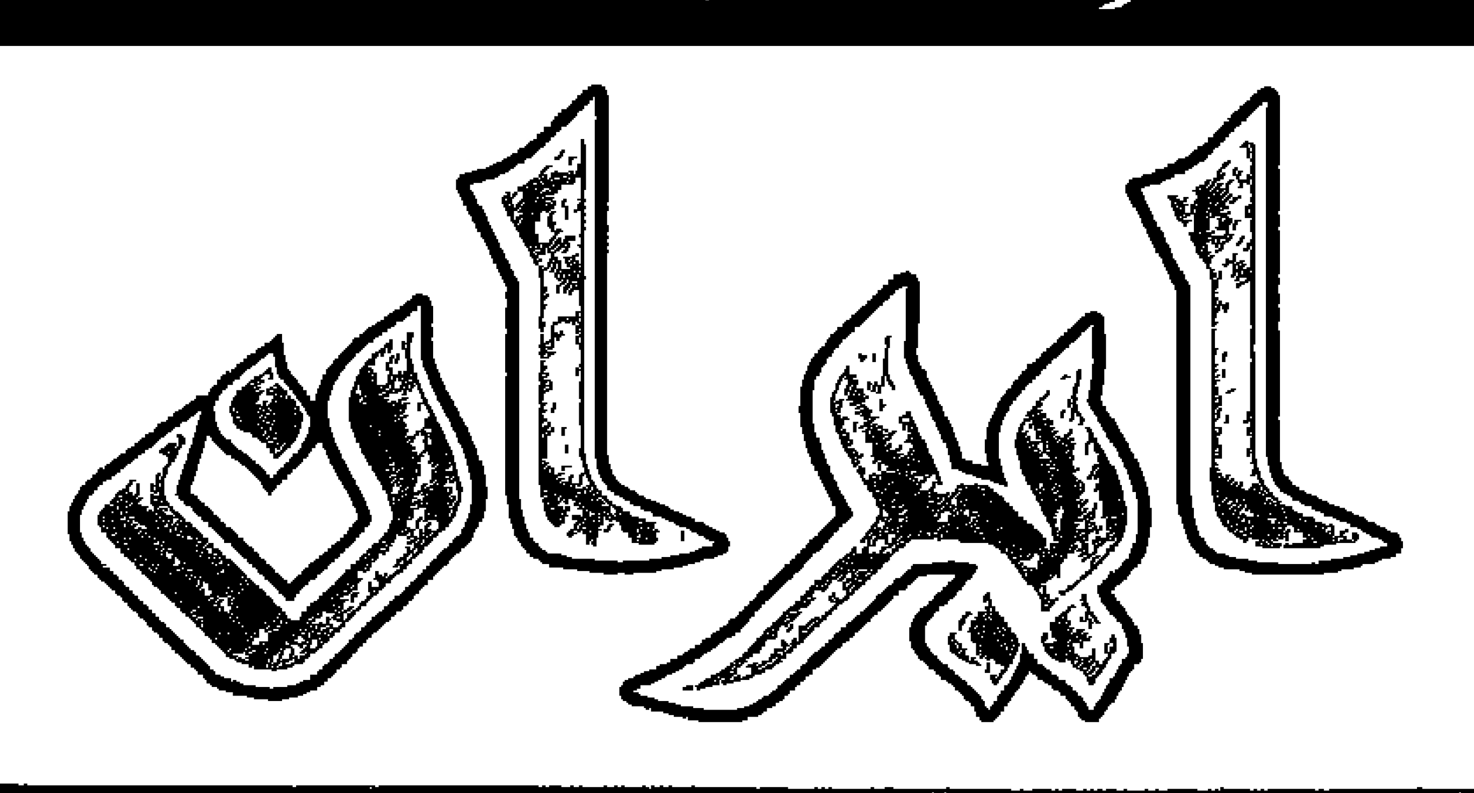
الاسلام وقضايا العصر ١



الدولة الاسلامية..ماذا تعني؟

عادل حسين



المركز العربى الاسلامى للدراسات

الإسلام وقضايا العصر (١)

إيران

الدولة الإسلامية.. ماذا تعني؟

عادل حسين

المركز العربي الإسلامي للدراسات

الناشر

المركز العربى الإسلامى للدراسات

٣١٣ ش بورسعيد- السيدة زينب- القاهرة

ت: ٣٩٣٣٧٥٥ - ٣٩٠٩٧٦١

فاكس: ٣٩٠٠٢٨٣

الإشراف الفنى

طارق الكركيت

الغلاف إهداء الفنان

عصام حنفى

بسم الله الرحمن الرحيم



بين يدى الكتاب

باسم الله وبحمده، أقدم هذا الكتاب الذى أرجو أن يكون حلقة أولى فى سلسلة أنوى إصدارها تباعا إن شاء الله، فقد قدرت أن جمع المقالات التى نشرتها «الشعب» فى كتب يختص كل منها بموضوع معين (الاقتصاد المصرى مثلا، أو المواجهة مع الحلف الأمريكى-الإسرائيلى، أو طبيعة النظام الدولى المعاصر.. إلخ)، رأيت أن هذا يساعد القارئ المهتم على معرفة رأى الكاتب فى هذا الموضوع فالمقالات بطبيعتها كتبت فى تواريخ ومناسبات مختلفة، وقد ينسى بعضها بعضا، ولذا فإن لضمها فى خيط واحد يجعل استيعاب الفكرة العامة أيسر، والتأمل أجدى. وسيلحظ القارئ إن شاء الله أن المقالات المختلفة فى موضوع الكتاب المعين تعبر عن تكامل فى النظرة، بل سيلحظ القارئ أن مواضيع الكتب هى أيضا متشابكة وتعبر عن تكامل فى النظرة الكلية.

والنظرة الكلية للمؤلف تبدأ بهدف إعلاء كلمة الله مع كل ما يرتبط بذلك من أحكام ضرورية تعلمناها فى القرآن والسنة.. ولكن بعد هذه البداية ينشأ الجهاد الفكرى الأكبر (الذى يختلف فيه الناس) من أجل إجابة الأسئلة المحددة التى نواجهها (أفرادا وجماعات) فى العصر الذى نعيشه، وفى الأمة المعينة التى شاء الله أن نكون من بين أبنائها.

ولكن مادامت الإجابات متصلة بالأصول العامة المشتركة، فإنها لابد من أن تكون مترابطة بمنطق واحد، فما نصل إليه فى قضايانا الإقليمية يرتبط بالضرورة مع ما نراه فى أمر العالم كله ونظمه، وكذلك فإن ما نراه فى الخارج يترابط بالضرورة مع ما يجرى فى الداخل (مصر).. وحتى داخل مصر فإن ما نراه فى أمر نظمها السياسية يرتبط بالضرورة مع ما نراه فى نظمها الأخرى، فالنظام

السياسى الذى نستهدفه (والذى يختلف تماما عن نظامنا السياسى الحالى) يتسق بالضرورة ويترابط مع النظام الاقتصادى الذى نرجوه، ومع النظام الثقافى والتعليمى... إلخ.. وكله مربوط، بل مشروط، بالتدين وتقوى الله.

إذا وفقنا الله فى إصدار سلسلة الكتب سيلحظ القارىء أن ما يجىء فى كل كتاب هو تحليل يتراكم ويتكامل فى نتائجه، وسيلحظ القارىء من ناحية أخرى أن كل كتاب هو فى الحقيقة وكما ذكرت حلقة تترابط مع الكتب الأخرى التى تليه، لكى تتشكل فى النهاية نظرة إسلامية كلية لمشاكل مصر فى قلب أمتها العربية والإسلامية، بل وفى قلب النظام الدولى المعاصر.

* * * * *

فى هذا الإطار يصدر هذا الكتاب عن «الجمهورية الإسلامية فى إيران»، شاملا مقالات كتبتها فى هذا الشأن عبر ثمانى سنوات. ويجب التأكيد فى هذه المقدمة على أن قيام الجمهورية الإسلامية عام ١٩٧٩ بقيادة الإمام الخومينى رضى الله عنه، كان نقطة تحول فى تاريخ النهضة الإسلامية المعاصرة، وفى تاريخ الأمة الإسلامية، ويجب أن ندرس هذا الحدث وتطوراته من هذا المنظور.. وأحسب أن دول الاستكبار (وضمنها إسرائيل) أدركت هذا المغزى لنجاح الثورة الإسلامية الإيرانية، ولكن ظلت الغالبية فى مصر (وفى كثير من بلاد العرب والمسلمين) بعيدة عن الإدراك العميق لما جرى فى إيران ودلالاته، وقولى هذا لا ينطبق على الحكام وحدهم.. وأحمد الله أننى لم أكن من هؤلاء الغافلين، ولذا فإن متابعتى عبر القراءة لأحوال الجمهورية الإسلامية لم تنقطع، مؤمنا بأن ما يتحقق هناك هو فعل إلهى يتجاوز فى نتائجه أهل إيران.. وقد أثبتت التجربة وإنجازاتها أن الإسلام فعلا يملك الحلول المناسبة والمعاصرة لمشكلاتنا.. وكذلك ثبت أن السائر فى طريق التمكين للإسلام وحكمه شأنه شأن القابض على الجمر، فطواغيت الأرض ستجمع صفها ضده وتحاربه حتى يقضى الله فى أمرها.

من هنا فـإن زيارتى الأولى لإيران (١٩٨٩) لم تكن اقتـحامـا لمجهول، ولكـنها كانت فرصة لاختبار كل ما كنت قد قرأته عن الجـمهورية الإسلامية أو سمعته. إلا أن هذه الزيارة (الجزء الأولى من الـكتاب) جاءت فى أسـوأ اللحظات، فبعـد ابتلاء الحرب المجـنونة كانت إيران فى دمـار شديد وضـياع حـتى خيف علـى استـمرار تجربتها، ولكننى رأيت -رغم هذا- عوامل القوة والاستمرار كامنة، وبالتالى أردت فى مقالاتى أن أنشر الفهم الصحيح، وأدعـو للقاء العرب والمسلمين مع الجمهورية الإسلامية.

وبعد زيارتى الأولى، تواصلت كتابتى فى هذا الاتجاه لدى كل مناسبة، وخاصة بعد حرب الخليج الثانية، فلدى رصد التـطورات الايجابية فى أمتنا، تجاوزا للهزيمة والفرقة، كنت أشير دوما إلى ما يتحقق فى الجمهورية الإسلامية، كبند أساسى فى هذه التطورات الايجابية.. وقـد اخترت فى هذا الصدد ثلاث مقـالات (الجزء الثانى من الكتاب).. المقالات كالعادة كانت تربط حديثى عن إيران بالتطورات الايجابية فى المنطقة. ففى المقـال الأول كانت الإشارة إلى الأوجه الجـديدة للقوة الجيوسيـاسية الإيرانية فى إطار الحديث عن مؤتمر القمة الـعربية وعن تطورات تركيا وفى المقال الثـانى كان الحـديث عن مـعجـزات الثورة الإسـلامـية وإنجـازاتهـا السيـاسيـة والاقتصادية والعسكرية فى إطار ما يجرى بعد القمة العربية، وفى إطار ما يجرى فى تركـيـا والسـودان.. أمـا المقـال الثـالث فكان فى إطار الهـجـوم على المؤتمر الاقتـصادى الذى انعقـد فى القاهرة (١٩٩٦)، وفى إطار الهجـوم على الاتفاق مع صندوق النقد، فقدمت النموذج الإيرانى كبديل إسلامى ووطنى للتنمية.

وقد جاءت رحلتى التالية إلى إيران (الجزء الثـالث) تتويجا واختبارا لما جاء فى المقالات السابقة.. وسـيلحظ القارىء الفارق الكبير بين حال الجمهـورية الإسلامية أثناء زيارتى الأولى، وبين حالها فى الزيارتين الأخيرتين حيث أصبحت بالفعل قلعة مادية إلـى جانب أنها كـانت دوما قلعـة معنوية.. وحـتى فى الجانب المعـنوى فإن

الانفتاح الفقهى والسياسى (مع الانتخابات الرئاسية الأخيرة) زادها تألقا واستقرارا.. ويؤسفنى أن المقالات لم تستوعب كل ما عاينته ونويت الكتابة فيه، فعادة ما تتراكم من حولنا التطورات الإقليمية والداخلية على نحو يجبرنى على الولوج فى معتركها منصرفا عما كنت أنوى أن استطرد فى تناوله.

* * * * *

على أى حال، هذا هو الكتاب الذى أردت أن أقدمه للقارىء.

أرجو أن يسهم فى تعميق فهمنا لهذا الحدث الجبار الذى مثلته الثورة الإسلامية فى إيران، وأحمد الله أن الخط الذى ثبتنا عليه كان صحيحا، وأن الكثيرين الآن أصبحوا يرون مثل ما كنا نرى ونقول.

عادل حسين



الرحلة الأولى:

■ ١ ■

ماذا فى إيران الاسلامية بعـد وقـف القتـال؟

- ■ السؤال مازال حائرا: لماذا قبلوا فجأة القرار ٥٩٨؟
- ■ كيف تصل المرأة إلى مرتبة الاجتهاد وتصبح «آية الله»؟
- ■ مدرسة جديدة للسينما والتليفزيون والموسيقى
- ■ «الموضة الايرانية» فى ملابس الرجال والنساء
- ■ خلافات فى الفقه والسياسة والاقتصاد

لم أتمكن من زيارة الجمهورية الإسلامية فى ايران خلال السنوات العشر الماضية، اذ منعتنى المشاغل وضغوط العمل، لكننى حرصت فى هذه المرة على تلبية الدعوة وإزاحة العقبات، وسبب الحرص أننى أعتقد أن المنطقة الاسلامية والعربية ستمر بمرحلة تحولات كبيرة بعد توقف القتال فى الخليج.. وقد عبرت عن ذلك فى مناسبات كثيرة، واذا كان غيرنا يكره أو لا يحفل بدلالة ما يحدث حوله فنحمد الله أننا لسنا من هذا الصنف.

ولاشك أن ايران ممن يلعبون فى كل الأحوال دورا مهما فى أحداث المنطقة، ولذا فان علينا أن نتابع بيقظة ما يحدث هناك، ولكن كيف نفعل اذا كانت المعلومات التى تصلنا شحيحة وأغلبها مشوه؟ حسب ما قرأنا فى الاعلام المصرى والعربى خلال السنوات العشر الماضية يكون الامام الخومينى قد توفى الى رحمة الله مائة مرة على الأقل!

لقد حاولت - على أى حال - أن أتابع ما نشر فى الغرب قدر الاستطاعة وحاولت أن «اغربله» واستمعت الى كل من ذهبوا الى هناك من علمائنا ومثقفينا ولكننى مدين بشكل خاص - مع الكثيرين - لكتاب أخى الأستاذ فهمى هويدى (ايران من الداخل) ولعل صحبتى له أثناء هذه الزيارة كانت من عوامل الحفز والتشجيع لقبول الدعوة.

رغم كل ما حاولت تحصيله ظلت معرفتى قاصرة، فالمجتمع الايرانى - فى تاريخه السحيق وفى واقعه المعاش - بالغ التعقيد، والتغيرات التى أصابته من الثورة والحرب كانت سريعة جدا، تنقطع الأنفاس دون أن تلحق بها، واذا كنا نكتب الآن كسياسيين وصحفيين، وليس كباحثين أكاديميين، فان الوقف المفاجىء للقتال فى الخليج من جانب ايران (بعد رفض طويل عنيد) يعتبر «لغزا» يتطلب الحل اذا

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٤/٢/١٩٨٩

كان لنا أن نفهم المسار المقبل للأحداث، ويبدو أن الأمر لغز كذلك بالنسبة للجماهير الايرانية الواسعة، ومنذ البداية أعلن الامـام الخومينى أن الظروف لا تسمح باذاعة الأسبـاب التى أدت الى قبـول أصحـاب القرار بوقف اطلاق النار. وقـد أكد حـجة الاسلام هاشـمى رافسنجـانى (نائب القائد العـام للقوات المسلحة ورئـيس مجلس الشورى) الموقف نفـسه أمـامى، حين سئل عن أسـباب قبـول ايران بوقف اطلاق النار، فـاعتذر صـراحة عن التـوضيح والاجـابة، واكتـفى بتأكـيد أن القرار أمـلته مصالح الثورة الاسلامية وحسابات الأمن القومى.

أخطر عملية بحرية منذ الحرب العالمية

الا أن مسئولا فى الخارجية الايرانيـة (طلب عدم ذكر اسمه) صرح بأن المرحلة الأخيـرة من الحرب وسـعت من نطاق العمليـات والتهـديدات، بحيث أصبـحنا فى اشتباك مـباشر مع قوات الناتو (حلف شمال الأطلنطى)، فـفى النصف الثانى لعام ١٩٨٧ اتجه الـى الخليج العربى (أو الفـارسى) ما يقـرب من ٧٥ سفـينة حربـية أمريكية - فرنسـية - بريطانية - ايطالية - بلجيكية - هولندية. ويعتـبر هذا الحشد تخطيطا لأكبر عملية بحرية منذ الحرب العـالمية الثانية.. ويلاحظ أن ألمانيا الغربية لم تكن عازفـة عن المشاركة، ولكن اتخـذت مشاركـتها شكل الحلول مـحل السفن الحـربية الأمـريكية والبلجـيكيـة التى تعمل حـول بريطانيـا وفى البحـر الأبيض، والولايات المتحـدة لم تخف أهدافهـا، فقد أعلنت أنهـا تهدف بعمـلياتها الى حـماية الملاحة فـى الخليج من التهـديدات الايرانية والسـوفيـتية، وكـان الجمـيع يعلم أن السوفيت لايملكون فى الخليج الا فرقاطة يتيمة وثلاث كاسحات الغام.

بعد اعـداد هذه العدة - كما يقـول المسئول الايرانى - علمنا أن مـفاعلنا النووى قصف بقـذائف خاصة لاتملكها ولا تسـتخدمـها الا الولايات المتحدة، فـهى قذائف تتمكن من اختراق الجدران الأسمنتية التى يبلغ سمكها ٢٠ مترا، ولا تنفجر الا بعد أن تتم عملية الاختراق وتصل الى قلب الهدف، وبعد قصف المفاعل اسقطت الطائرة

المدنية الايرانية، ولم يكن ضربها - كما أشيع - على سبيل الخطأ فقد كان مقصودا وكان اعلانا عن دخول الولايات المتحدة فى المواجهة بنفسها، واضافة الى ذلك وصل الى علم القيادة الايرانية على نحو مؤكد أن هناك خطة أمريكية تساندها الدول الأوربية لإنزال قوات الى منطقة البترول لفصلها عن الدولة وخنقها اقتصاديا.

.. مع وصول النذر الى هذا الحد لم يكن أمام الجمهورية الايرانية الا أن تقبل وقف اطلاق النار منعا لضرر أكبر لايمكن دفعه.

سؤالان محيران

هذه عينة من الأسباب التى ساقها لنا مسئول ايرانى لوضعنا فى الصورة، وأظن أن ماخفى كان أعظم.. ولكن ألم يكن من الأفضل وقف اطلاق النار فى وقت أبكر، وقبل تصاعد الأزمة الى هذا الحد؟ وبدون هذه التضحيات الهائلة على جانبى الجبهة؟ مسئول آخر فى الخارجية يرد على التساؤلات بأن ما يهمنا الآن هو أن القرار صدر والحمد لله، والقرار يعنى تراجعا صريحا عن تحقيق أهدافنا التى أعلناها فى السابق وقد حققنا هذا التراجع مع احتفاظنا بتماسك جبهتنا الداخلية وقواتنا المسلحة.

لقد أعلن آية الله الخومينى بنفسه القرار، ولاشك أن الوزن الخاص لسماحة الامام كان ضمانا لأن يخضع له الجميع، وقد طلب كما تعلمون تأجيل المناقشة فى الأسئلة التى أثرتم بعضها وامتثل الجميع لهذا الطلب.

ولكن اعترف محدثى بأن الأسئلة تزن وتطن فى العقل الايرانى، ولابد أن تطفو على السطح وتفرض نفسها فى وقت ما، وأضاف أنه شخصيا يتساءل: فى لحظة ما من الحرب بدا أن بوسع القوات العراقية أن تتقدم فى الأهواز وتصل الى منطقة البترول بدون قتال، فلماذا توقفت فجأة؟ كذلك بدا فى لحظة اخرى أن بوسع القوات الايرانية ان تصل الى البصرة، فلماذا توقفت هى أيضا دون سبب

مفـهوم؟ كـيف تم تدبير الأمـر وكيف تمت الغـواية، بحيث اسـتمـرت الحرب دون السماح بحسمها طوال هذه المدة ؟

*****

على أى حـال.. توقف القتـال.. وبعد أشـهر طويلة عـاد الامام الخومـينى (١٨ سبتمبر ١٩٨٨) الى تأكيد أن «ايران جادة تماما فى مساعى السلام فى اطار القرار ٥٩٨ لمجلس الأمن الدولى، ولن تكـون البادئة بإحـبـاط هذه المسـاعى» وقـد عبـر المسئولون الذيـن قابلتهم عن المعنى ذاته. صـحـيح أن العبارة السابقة كـانت تنتهى دوما بـانذار يقول: «الا اذا..»، ولكن لا أظن ان ايا من البلدين يـعد نفـسه لتجـديد القتال. وهذا ينطبق على العراق قدر انطباقه على ايران.

فماذا بعـد وقف القتال؟ وماهو الدور المصرى المحـتمل فى هذه المرحلة الجديدة بعد وقف اطلاق النار؟ ما دور الدولة المصرية فى التوصل الى تسوية مستقرة بين العراق وايران؟ وهل تـتعارض السـياسة الواجـبة للدولة المصـرية نحو التـضامن العربى مع فتح صفحة جديدة فى علاقاتها مع الجمهورية الاسلامية الايرانية؟!

*****

اذا نظرنا بعد هذا فى داخل ايران، فـسنلحظ مباشرة أن الحـرب تركت جروحا عـمـيـقـة لا أظنهـا تندمل فى وقت قـريب. الجـسـد الايرانى نزف دمـاء غـزيرة، والاقـتـصـاد الايرانى ضـاعت منه مـوارد وتحطمت أصـول وتوقـفت مـصـانع، والجمـهورية الاسلامـيـة تشعر بالعـزلة وبضغط الحصـار الدولى والاقليمى الذى تتعرض له.

ثمة اغـراءات قوية لكى تقلل الجمهـورية الاسلاميـة من «تطرفها»، بحجـة أنها تحتـاج هدنة طويلة تلتقط فـيها أنفـاسها.. وهناك أفكار تـطرح فى هذا الاتجاه من داخل ايران ومن خارجها. والحقيقة أن الاعـداد لمرحلة ما بعد وقف القتال، تصحبه خلافات ومناقشات صاخبة لا تخفى على كل من يرى ويسمع.

فالحوار يجرى علنا فى المساجد والحوزات العلمية، وفى خطب الجمعة التى تحضرها ملايين المواطنين فى المدن الايرانية، وكذلك فى الصحف ومجلس الشورى، وفى كل اللقاءات التى تصادف أن عقدتها فى الفندق أو خارجه.. ومع ذلك فكل الذى أشرنا اليه لا يعنى أن النظام الذى أقامته الثورة الاسلامية فى طريقه الى الانهيار، ويخطىء خطأ جسيما كل من يقيم حساباته على هذا الأساس، ويكفى أن تشهد صلاة الجمعة فى طهران (على سبيل المثال) مع مئات الألوف من الرجال والنساء من مختلف الأعمار ومختلف الفئات الاجتماعية، يكفى أن ترى منظر هؤلاء الذين يحتشدون فوق الجليد، وفى الميادين المكشوفة، لسماع خطاب سياسى من أحد القادة فى النظام (الى جانب الصلاة طبعا) كل اسبوع، يكفى أن تشهد ذلك لكى تدرك عمق الأساس الذى يرتكن اليه النظام الايرانى.

وأعتقد ان كل القوى العالمية، وكل الأقطار العربية الخليجية، تتعامل مع الدولة الايرانية وفق هذا المفهوم الذى قدمته، فلا أظن ان خطة المواجهة (عسكرية أو غير عسكرية) ستكون أساس التعامل فى المستقبل ولكن ستتركز الجهود ـ على مايبدو ـ فى محاولات الاحتواء والترويض، بعد أن فشل الصدام المتواصل فى القضاء على نزعة الجهاد والاستشهاد... و«التطرف».

خواطر الزيارة الأولى لمدينة طهران

هذه أول مرة أزور فيها ايران.. ولم تتعد جولتى القصيرة نطاق طهران وقم، وما رأيت كان أجمل وأروع مما تصورت وقدرت.

البلد بجبالها وثلوجها وغناها تفرحك وتبهجك، والناس فى هذا البلد فنانون بالفطرة وتلمس فى سلوكهم أثر الحضارة التى تمتد الى آلاف السنين.

وأيا كان الرأى فى الخلافات السياسية والمذهبية بيننا وبين أهل إيران، فإن المرء السوى لا يملك الا ان يهتز طربا وهو يرى تراجع التغريب وعودة الرايات الاسلامية والأصالة الحضارية الى هذا البلد العريق.. نعم لقد أعز الله الاسلام

بأهل ايران، وأعز أهل ايران بالاسلام.. وان المرء ليمتلىء بالزهو وهو يلحظ أن المسئولين هناك يصرون على التحاور معك باللغة العربية.

أن أغلبهم يفهمك إن تكلمت بالفصحى، وإن تعذر على بعضهم أن يرد عليك بها مخافة أن يخطىء.. ولكنه يرفض فى هذه الحالة أن يتفاهم معك عبر اللغة الانجليزية أو الفرنسية التى يجيد الحديث بها مباشرة، فهو يصر على أن يكون الحديث مع العرب بلغة القرآن حتى ان تطلب ذلك وجود وسيط يقوم بالترجمة ويطيل فى مدة اللقاء.

وحين قابلت رئيس الجمهورية السيد على خامنئى استحسن أن يستعين بمترجم، ولكنه تدخل كثيرا للتصويب والتدقيق.. ولا عجب فهو متخصص فى علم قراءة القرآن، وهو حين يعد خطابا بالعربية (فى صلاة الجمعة مثلا) يقرأه بفصاحة واتقان دون أن يلحن!

.. الا أن المرور فى مدينة طهران ينافس حركة المرور فى القاهرة، من حيث التزاحم والتدافع والعدوان على كل القواعد المتعارف عليها!! ولا أدرى لم فوجئت بهذه الظاهرة، ولم تصورت أن وسائل النقل هناك قد تحولت الى الباصات والدراجات وتخلت عن السيارات الخاصة؟! تصورت هذا ولكنه لم يحدث.

أزياء المرأة: احتشام دون مغالاة

وما دمنا نتجول فى الشوارع، فان الأزياء لفتت نظرى بالفعل.. الأزياء هناك (للرجال والنساء) محتشمة وبسيطة. العلماء وحدهم يلبسون الجلباب والرجال الآخرون فى مختلف المهن يلبسون «البدلة» ولكن لم أشهد فى ذلك تصميمات مبهرجة ذات خطوط مستوردة، ولم أشهد تباينا واسعا فى صنف القماش ونوع التفصيل و«الموضة» التى تميز منظر الرجال فى ايران الآن هى أنهم أطلقوا لحاهم، وجميعهم أقلع عن استخدام ربطة العنق، وقد وصفت اللحى بأنها «موضة»، لأن

اطلاقهـا هناك لا يتخذ بالفعل مـضمونا دينيـا صريحا، ولذا فان الأمـر لا يعدو أن يكون استحسانا وذوقا عاما.

وقد شـهدت الفـترة الأولى من الثورة تشـديدا على موظفى الدولة لكـى يطلقوا لحاهم، ولكن لم يعد الأمر كذلك، وعـاد البعض الى حلق اللحى.. وان ظلت الغالبية تشكل التقليد الجديد.

والأمر نفسـه يقال عن المرأة وزيها، فالشادور.. وهو الزى الأسود الفـضفاض الذى لايكشف الا الوجـه والكفين، لم يـعد النمط الوحـيد المسـتخـدم، اذ حلت الى جواره طرز أخـرى تحقق الاحـتشـام، ولا تكشف الا ما أذن الله بـكشفه (الـوجه والكفين) وكـما فى حالة الـرجال، مرت بعـد الثورة فـترة سـادها تشدد الشـباب وفرضوا ارتـداء الشادور بالقوة على كل النساء، ولكن مـع ثبوت مبدأ الاحـتشام، أصبح بوسع الثورة الاسلامية أن تكون مرنة، واذا كان الدين نفسه لا يقبل الاكراه فيه والله تعالى يقرر أن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. اذا كان الأمر كذلك فى مسألة الايمان والكفر ، فكم هو أحرى ان يكون فـيما هو أقل خطرا وأثرا، كمسألة الزى.. بعد ثبوت مبـدأ الاسلام، ومبدأ الاحتكام اليه، وصارت الدعـوة الى تعاليمه تتم بالموعظة الحسنـة.. والغالبية تتـعظ، ولكن الأقلية تعـاند أو تكابر، ويظهر هذا بشكل واضح فى انـكشـاف شعـر الرأس.. كلـه أو بعـضه.. تـرى هذا فى الفنادق والشوارع الرئيسـية وفى الطائرة الايرانية طبعا، وقـد تسمع فى الفندق من يطلب بأدب من السيـدات (عبر مكبرات الصوت) أن تـراعين الحشمة، وكـذلك تسمع هذا ضمن تنبيـهات قائد الطائرة قبل اقلاعـها.. ولكن يترك الأمر بعـد ذلك لتقدير من سمع.

٦٠٠شهيدة فى معركة واحدة

وقد فـهمنا من أحاديثنا فى طهـران أن نسبة النساء الملـتحقات بقـوة العمل فى المعـامـل والادارات، زادت أثناء سنى الثـورة، وأظن ان هذه ظاهرة ترتبـط بشكل

خاص مع ظروف الحرب التى سحبت اعداداً هائلة من الرجال الى جبهات القتال، وقد حدثت ظاهرة مشابهة فى العراق، وهذا طبيعى

ان مشاركة المرأة فى العمل الاجتماعى والسياسى اتسعت كثيرا فى ايران الثورة على عكس ما يتصور الكثيرون. والضوابط الشرعية على حرية المرأة منعت (أو حدت من) مظاهر الانحلال، ولكنها لم تمنع منذ البداية المشاركة فى صنع الأحداث الكبرى.. ويذكر فى تاريخ الثورة أن آلافا من النساء أقمن سدا بشريا لكى يمنعن قوات الأمن من اطلاق الرصاص على المتظاهرين الرجال. كان ذلك فى أوائل ١٩٧٩ وكان المتصور ان جند الشاه سيحرجون، ولكن خاب الظن وأطلقوا الرصاص على النساء، واستشهد يومها ما يقرب من ٦٠٠ امرأة مجاهدة.

الا أن الحديث عن المرأة ودورها الحالى فى المجتمع الايرانى لا يكتمل الا بالاشارة الى المعهد الجديد، الذى يزمعون اقامته من أجل تطوير التعليم الدينى للنساء، والهدف أن يكون المعهد «حوزة» تخرج نساء حاصلات على دراسات عليا فى «تبليغ الدعوة».. أى فى مستوى «حجة الاسلام» والباب مفتوح لأن تصل نساء الى مستوى «أيات الله»، اذا استطعن يتفقهن وينبغن الى حد القدرة على الاجتهاد فى أمور الدين.

كذلك لابد أن نشير الى أننا رأينا المرأة فى التليفزيون ترتدى الشادور وتعمل مقدمة للبرامج وتقرأ الأخبار، كما أنها تشترك فى تمثيل الأفلام التليفزيونية والسينمائية.. وهذا حديث يجرنا الى مسألة الموقف من الفنون بشكل عام.

مع الفنون وضد الفساد

هذا الموقف أعلنه الامام الخومينى منذ أعوام، وألح عليه منذ مايقرب من عام قال: نحن مع الفن ومع الموسيقى والسينما وضد الفساد. وفى اكتوبر ١٩٨٨ أعلنت باسمه كلمة تقول ان «الفن الوحيد المقبول من لدن القرآن الكريم هو ذلك الفن الذى يبلور الاسلام المحمدى الأصيل، اسلام الفقراء والبائسين، اسلام الحفاة،

اسلام المضطهدين.. اننا نريد فنا جميلا ونزيها، يضرب الرأسماليين الجدد والشيوعيين مصاصى الدماء، ويقضى على اسلام الترف واللهو، واسلام المساومة والذل والخذلان، واسلام المرفهين الفارغين من كل هم.. اننا فى كلمة نريد فنا يقضى على الاسلام الأمريكى، ويكشف عن النقاط الغامضة والمعضلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية».

وقد لاحظت بالفعل ان مدرسة جديدة فى الفنون الاسلامية تشق طريقها الآن فى ايران، فمن ناحية تدربت خلال السنوات العشر الماضية كوادر جديدة موهوبة، قادرة على التعبير الفنى عن رسالة الاسلام، ومن ناحية أخرى فإن عددا من الكوادر القديمة التى تركت العمل فى السنوات الأولى من الثورة، كادت تتفاعل مع المجتمع الجديد، واكتشفت أن بالوسع إخراج أفلام ممتازة وتأليف اغان ورسم لوحات، دون الخروج عن الضوابط الأخلاقية والقيمية.

أفلام جادة وأفلام يابانية

وقد رأيت بعضا من هذا كله فى معارض للفنون التشكيلية وفى أفلام تليفزيونية، وقد دعتنا «جمعية التبليغ الاسلامى» وهى التى رتبت زيارتنا للجمهورية الاسلامية وللمشاركة فى ندوتها العلمية عن مفاهيم التبليغ (أى الاعلام) الاسلامى وأساليبه، أقول إن الجمعية دعتنا لكى نشهد آخر انتاج سينيمائى للمركز التابع لها، والفيلم كان رائعا من الناحية الفنية فى إخراجه وتصويره وتمثيله.. وفى السيناريو، ولكنه كان بالغ الحدة فى نقده للأوضاع الاجتماعية والعلاقات الانسانية فى ايران الثورة.. كان حادا إلى درجة أذهلتنى فى الحقيقة!

وأمر آخر أذكره.. فقد لاحظت عندهم معادلا للمسلسل الاجرامى والشهير عندنا بـ«فالكون كريست»، وهو مسلسل يابانى أنطقوه بالفارسية، وأدخلوا عليه تعديلات محدودة رأوها ضرورية من وجهة النظر الشرعية، هذا المسلسل اسمه

«أوشين»★ وساعة عرضه على شاشات التليفزيون تتوقف الحركة فى شوارع طهران!

القصة فى المسلسل اليابانى راقية من الناحية الانسانية، وتعكس شخصية امرأة يابانية (أوشين) تحاول أن تنتزع اعتراف المجتمع وأهل زوجها بكفاءتها رغم انخفاض أصلها الاجتماعى.. وقد قال لى حجة الاسلام أنصارى أنه من المعجبين بالأفلام اليابانية عموما، وإنها تناسب الذوق الايرانى، لأن الأداب السائدة فى الأسرة اليابانية وفى المجتمع اليابانى قريبة من الفضائل التى يتطلع اليها الايرانيون.

وبالمناسبة، فإن النساء اللاتى يقمن ببطولات هذه الأفلام اليابانية، تظهرن حاسرات الرؤوس، وان كان الزى اليابانى سابغا فى العادة ولا يكشف إلا اليدين.

الخومينى والشطرنج

إن التوصل إلى المفاهيم الحالية لم يكن سهلا فى إيران، فالفقه الشيعى كان متزمتا جدا، والكتابات القديمة للامام الخومينى نفسه كانت تحرم الموسيقى وآلاتها، ودعك من التمثيل وأهله.. وحتى آخر عهد الشاه كان تحريم التليفزيون والسينما صريحا وقاطعا، ولذا نجد أن عدد أجهزة التليفزيون فى ايران كان قليلا قبل الثورة، رغم ارتفاع الدخول لدى الطبقة الوسطى آنذاك.. وقد حافظ عدد كبير من الفقهاء على موقفهم القديم وثبتوا عنده، وبالتالى مازالوا يحرمون ارتياد السينما أو مشاهدة التليفزيون، إلا أن الخومينى يستخدم كل وزنه من أجل تعديل المفاهيم والفتاوى، مستندا إلى تغير ظروف الزمان والمكان، فهو يذكر دوما بأن الانتاج الفنى هذه الأيام يختلف عن الفنون أيام الشاه ورسالتها العاهرة.

وقد علمت أن المعركة مستعرة كذلك حول «الشطرنج»، وهل هو حرام أم حلال؟ فهنا أيضا كان الفقه التقليدى يقرر الحرمة، وجاء الخومينى الآن يقول إنها وسيلة

★ تم عرض نفس المسلسل فى مصر بعد كتابة هذا المقال بعدة سنوات.

لتنشيط الذهن، وليس فيها مايضر ويدعو للمقاطعة، إلا أن الأمر لم تحسمه هذه الفتوى، وقد نشر رئيس قسم الفتوى فى مكتب الامام نفسه بيانا يعارض ماذهب اليه القائد.. وكتب الخومينى ردا قاسيا وقال له. لم أكن أعلم أنك ضمن هؤلاء الذين طبع الله على قلوبهم.

*****

إن المرونة التى تغلغلت فى الممارسات الاجتماعية جاءت فى قسم منها بطريقة تلقائية، وتعكس الميول الفطرية التى تميل الى الاعتدال، إلا أن من واجبنا أن نقر بدور الفقهاء المجددين، الذين عاشوا بين مشاكل الناس وأصبحوا مطالبين باجابة الأسئلة العديدة التى قدمتها الحياة، وبطريقة تيسر ولا تعسر، فى إطار الضوابط الشرعية.

قال لى رافسنجانى: «إن الفكر الاسلامى فى المدرسة الحوزية لم يكن يعرف مشاكل الناس والمجتمع كما نعرفها الآن بعد أن مارسنا مسئولية الحكم.

فى المدرسة الحوزية كانوا يسألوننا عن «الخمس» والزكاة، وكانت عندنا إجابات جاهزة ولكن فى الأمور الأخرى كنا جهلة، ويضيف رافسنجانى: «إن الأفكار وأساليب الحكم التى ورثناها عن صدر الاسلام لم تكن تكفينا، كذلك فنحن نسعى لاقامة أول دولة اسلامية فى العصر الحديث، وأصبح لدينا مجلس شورى منتخب وحكومة ومجلس محافظة على الدستور، وقوات مسلحة.. الخ». وكل هذا يتطلب اجتهادا، لم يعد يكفينا الآن أن نقول كلاما عاما عن العدالة، ولكن لابد من برنامج محدد.. ورغم تصدى الفقه لهذه الأسئلة الجديدة كان علينا فى بعض الأحيان أن نؤجل حسم الخلافات بين المجددين والمحافظين، لأن ظروف الحرب لم تكن تساعد على انطلاق النقاش واحتمال مخاطر الفرقة.. ولكن فى مرحلة ما بعد وقف اطلاق النار أصبح واجبا وممكنا أن نحسم الخلافات بقرارات واضحة».

حجة الاسلام هاشمى أكبر رافسنجانى محدث بارع يجذبك للاستماع إليه، رغم أنك لا تفهم الفارسية التى يتحدث بها، وهو حين ينتقل الى الحديث بالعربية ـ إكراما لك ـ لا تتنبه إلى أنه فعل ذلك، لأنه ينطق العربية بلهجة فارسية جدا.

*****

المهم، رافسنجانى قال ما قاله فى إطار حديثه عن مهام المرحلة القادمة باعتبارها مرحلة الإعمار (التنمية) والاستقلال الاقتصادى.

وحين ينتقل الحديث الى هذه الأمور، نجد أنفسنا فى قلب الخلافات الكبيرة التى أشرنا اليها فى هذا المقال، والتى يلعب رافسنجانى شخصيا دورا كبيرا فيها.

*****

■ ٢ ■

ماذا فى إيران الاسلامية بعد وقف القتال؟

■ المزاج العام عصبى . .
مع ارتفاع فى درجة الحرارة!!

■ رئيس الحكومة فاجأ الإمام الخومينى واستقال

■ السلطات الثلاث ودور العلماء و«الفقيه»

■ احتمالات قيام الجيش بانقلاب عسكرى!

■ مطالبة بإبعاد الشباب عن العمل السياسى

■ تساؤلات وملاحظات بعد اتفاقية بغداد

ماذا بعد وقف القتال؟ ما هو الدور المصرى المحتمل فى هذه المرحلة الجديدة.. بعد وقف إطلاق النار؟ ما دور الدولة المصرية فى التوصل إلى تسوية مستقرة بين العراق وإيران؟ وهل تتعارض السياسة الواجبة للدولة المصرية نحو التضامن العربى.. مع فتح صفحة جديدة فى علاقاتها مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية؟

فى كل الأحوال.. ينبغى أن نعرف بأمانة - على الأقل - حقيقة ما يحدث فى هذا البلد الكبير وهذا ما حاولت أن أفعله، وأشرك القراء فى حصيلة ما وصلت إليه.

منذ وصلت إلى طهران حرصت على متابعة ما ينشر فى الصحف.. ولحسن الحظ فإن عددا منها يصدر بالعربية والإنجليزية، ورغم قصر المدة لاحظت أن القضايا تتفجر الواحدة بعد الأخرى، ولاحظت أن درجة الحرارة فى الحوار والنقد مرتفعة.

فأثناء إقامتنا حدثت مشادة فى مجلس الشورى حول الميزانية، حيث طلبت الحكومة إدخال تعديلات فى الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة المالية، ورفضت الحكومة أن تعلن الأسباب لاعتبارات الأمن القومى - على حد قولها - إلا أن بعض الأعضاء أصروا على معرفة الحقائق، وقالوا إنهم اطلعوا على الميزانية بأكملها فى بداية العام وناقشوا محتوياتها، فلماذا ظهرت اعتبارات الأمن القومى فجأة؟ وحسبما جاء فى الصحف، فإن الاتهامات بين الجانبين تطايرت فى جو المجلس.. وحين نشرت كيهان (كبرى الصحف الإيرانية) مادار فى الجلسة، ووجه محررها بإهانات بالغة فرفع الأمر للقضاء.

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٩٨٩/٢/٢١

وخلال الفترة ذاتها قرأت فى الصحف أنباء البرنامج الإذاعى الذى سئلت فيه فتاة إيرانية عن السيدة التى تعتبرها مثلا أعلى لها، فقد أجابت الفتاة بأنها «أوشين» بطلة المسلسل اليابانى (وهى شخصية شجاعة وذكية، وقد أشرت إلى النجاح الكبير الذى يلقاه هذا المسلسل فى إيران). وحين قال المذيع: وماذا عن السيدة فاطمة الزهراء؟ قالت الفتاة: إنها تحترم السيدة فاطمة (رضى الله عنها)، ولكنها تمثل عصرا غير عصرنا، وقد اعتبر الإمام الخومينى إجابة الفتاة تعديا لا يغتفر، أصاب الرموز التى يقتدى بها، وطلب عقاب المسئولين المباشرين على إذاعة هذا البرنامج، وجاء فى رسالته «إذا تكرر هذا الأمر فإن أصحاب المناصب العليا سيعاقبون بقسوة».. وقد حرص طبعا على أن يؤكد ـ فى ختام رسالته ـ أن أية إجراءات لابد أن تتخذ عن طريق القضاء.. والأهمية الخاصة للحدث والتحذير، ترجع فى جانب منها إلى أن صاحب المنصب الأول فى الإذاعة والتليفزيون هو شقيق هاشمى رافسنجانى.

اليهود فى البازار

وإلى جانب ما قرأته فى الصحف عن خلافات «روحانيون» مع «روحانيات»، وإلى جانب ما قرأته وسمعته عن المطالبة بتعدد الأحزاب فإننى لاحظت كذلك أثناء تجوالى فى طهران أن التجار اليهود يحتلون كالعادة موقعا مرموقا فى «البازار»، وفى المنتجات الحرفية الدقيقة بشكل خاص. إن لليهود ممثلا لطائفتهم فى مجلس الشورى، وقد شاهدت فى التليفزيون كبيرهم يدعو للثورة الإسلامية بالخير والبركة لأنها رعت حقوق الأقليات.. ولكن ما رأيته فى البازار كان يختلف تماما عن قول كبيرهم هذا، لقد رأيت التجار اليهود حريصين على إبراز الصور والشعارات التى تؤكد أنهم يهود، وهم فى نفس الوقت يسخرون وينتقدون علنا الإمام الخومينى والحكومة، وزاد اطمئنانهم للأسف حين علموا أننا ـ فهمى هويدى وكاتب هذه السطور ـ مصريون! وقد طلبوا منى ـ دون سابق معرفة ـ أن أمدهم

ببعض البضائع النادرة فى السوق، لقاء مبالغ كبيرة يدفعونها بالدولار نقدا وفورا.. ولكنهم لم يجاملونا مع ذلك بأى خفض فى أسعار السلع التى حاولوا أن يبيعوها لنا!

لقد فوجئت حقيقة من الطريقة التى يخرب بها هؤلاء التجار اليهود السياسات الاقتصادية الرسمية، فوجئت بالذات لأنهم يفعلون ذلك علنا.. ويزيد الدهشة أننا رأينا إلى جوارهم، وفى كل الشوارع الرئيسية، شبابا يعرضون شراء النقد الأجنبى بسعر يرتفع كثيرا عن السعر الرسمى للتحويل، هؤلاء الشباب وجدناهم يحملون ـ باطمئنان كامل ـ حقائب فيها «عدة الشغل»: النقود مرتبة حسب نوع العملة، ودفاتر لتقييد العمليات، وحاسب الكترونى لإجراء عمليات الضرب والقسمة بسرعة.. ولكن أهم ما لاحظت هنا هو أن الأسعار تتذبذب يوميا وفق معدلات يلتزم بها الجميع، وهذا السعر الموحد يعنى أن هؤلاء الشباب مرتبطون بسوق منظمة، لها شبكة دقيقة للمعلومات والاتصالات، ولذا تصورت أنها سوق رسمية معترف بها، حتى علمت من خبراء البنك المركزى أنها ليست كذلك!

مطلوب تغيير قيادات الإعلام

كانت المناسبة التى زرت فيها طهران هى انعقاد لقاء فكرى يبحث مشاكل الإعلام (التبليغ) الإسلامى.. وكما فى خارج المؤتمر، لاحظت أن المتحدثين الإيرانيين المشاركين معنا فى اللقاء يمارسون نقدا صريحا للأوضاع القائمة. بدا هذا جليا فى الخطاب الافتتاحى لرئيس الجمهورية حجة الإسلام السيد على خامينئى، فقد اعترف فى خطابه بأن الإعلام الدولى الموجه ضد إيران كان مخططا له ببراعة، بينما كان الإعلام الإيرانى تلقائيا وعاجزا عن ملاحقة الأحداث بكفاءة.. وفى اليوم التالى للقاء سمعت بحثا لحجة الإسلام مسيح مهاجرى (رئيس تحرير صحيفة جمهورى إسلامى) وقال الرجل: إن التنسيق منعدم بين الجهات القائمة على الإعلام الإيرانى، وما يتفق عليه (إذا اتفقوا) لا ينفذ، وقال: إن أسلوب المتابعة

عندهم يهتم بكمية ما ينتج ولا يهتم بنوع ما يقدم. «نحن نسأل كم أنفقنا على الإعلام؟ كم كتابا طبعنا؟ كم مؤتمرا حضرنا؟ ولكن المتابعة لا تسأل مطلقا عما إذا كانت المؤتمرات أفادت أم لا؟ وهل كانت الكتب مقنعة وعلمية؟ وهل البرامج المذاعة شيقة ومحققة للمستهدف؟ وقد خلص مهاجرى من عرضه إلى أن الإعلام الإيرانى عجز عن كسب أنصار جدد للثورة، بل اتهمه بأنه أفقد الثورة بعض مؤيديها، وأضاف أن الإعلام لا يتعامل بحزم مع بعض المسئولين الذى سقطوا فى الترف وابتعدوا عن أهداف الثورة، وقال: إن هذا كله يتطلب تعديلات جوهرية فى أشخاص المسئولين عن قطاع الإعلام.

التصفيق ممنوع!

لم يكن اللقاء محدود العدد، فهو منعقد فى قاعة كبرى للمؤتمرات، وبالتالى فإن بحث مهاجرى أخذ شكل الخطبة الحماسية، إلا أن الإيرانيين أصبحوا لا يصفقون حاليا إذا أرادوا أن يعبروا عن موافقتهم وتفاعلهم مع ما يقال (إذ كانت هناك فتوى تحرم التصفيق).

و.. لا بأس هنا من بعض الاستطراد، فبعد الثورة كان التشدد فى هذا الأمر واصلا إلى مباريات الكرة، وحدث مرة - كما قيل لى - أن أصاب الفريق الإيرانى مرمى خصومه، واحتار الناس فى الأسلوب الذى يعبرون به عن تشجيعهم للفريق.. وفجأة وجدوا أنفسهم يلطمون صدورهم بأيديهم، على حسب التقليد الشيعى فى إظهار الأسى والمرارة لما أصاب أهل البيت.. وقد لاحظت مؤخرا فى التليفزيون الإيرانى أن الجمهور عاد يصفق لفريقه القومى إذا تطلب الموقف ذلك.. ففى مناسبات أعياد الثورة رأيت خامينئى شخصيا يصفق بحماس.. وأهمية الإشارة الخاصة إلى رئيس الجمهورية ترجع إلى أنه من العلماء، إضافة إلى أن يده اليمنى عاجزة عن الحركة إثر انفجار استهدف حياته وانتهى إلى إصابة يده بالشلل.. وبالتالى كانت مشاركته فى التصفيق تعنى أنه يقصد بإصرار تأكيد المبدأ.

انتـهى الاسـتـطراد.. وكنت أقول: إن كـلـمة مـهـاجرى فى اللقـاء الفكرى كـانت حـماسـية وحـامية، وإذا كانت عـادة التصـفيـق لم تتسلل بعـد إلى المحاضـرات والاجتمـاعات السياسيـة، فإن التعبـير عن التأييد يكون فى هذه المناسـبات بكلمة «أحسنت»، وقد قـالتها أغلبية من فى القاعـة، بينما زمجرت الأقلية وأبدت ضـيقها، وقـال لى أحدهم: إن سـبب ضـيقـه يرجع إلى أن الكلمـة - فى رأيه - لم تكن فى موضعها المناسب.

هذا الحديث لمهاجرى شجعنى حقيـقة لكى أتكلم أنا أيضا بلهجة نقدية حين جاء دورى للكلام، فقد رأيت أن القسم الأكبر من الأبحاث والكلمات يركز على الضوابط الشرعية لمفـهوم التبليغ، وعلى الصفات التى ينبغى أن يتـحلى بها المبلغ أو الداعية، كما جاء فى كتب القدماء، وقلت إن الإعلام (أو التبليغ) أصبحت له أدوات وإمكانات كبيـرة، وكان يجب على الباحثـين أن يهتموا بكـيفية الاستـفادة من هذه الإمكانات لخدمة الدعـوة الإسلامية.. وقد استطردت فى هذا الاتجـاه ناقدا ما دار فى المؤتمر، وناقدا ما رأيته من أوجه القصور الفنى فى الصحافة الإيرانية وفى الإذاعة.

لم أكن أدرى حقيـقة إن كنت قد وفقت أم تجـاوزت ما هو لائق ومناسب، ولكن قالت لى الأغلبـية (كما قـالت لمهاجرى): أحـسنت. وقال آية الله جنتى (من فقـهاء هيئـة المحافظة على الدسـتـور ورئيس جمعـية التبليغ الإسـلامى التى دعتنا لزيارة طهران): «لـقد لاحظت - وأنا أفـهم العربيـة - أنك تتكلم فى أمور جـديدة ومهـمة، وخفت أن يفوت الإخوان هذا الحديث بسبب مشاكل الترجمة الفورية إلى الفارسية، فقلت لمن حولى: يجب أن تنتبهوا جيدا لهذا الكلام، ويجب أن تهتموا بتسجيله».

أسـعدنى مـا قاله جنـتى بطبيـعة الحـال، وأسـعدنى أكـثر أن حـجة الإسـلام رافسنجـانى جاء يخطب فى اليوم الأخـير للمؤتمر، وأشـهد أنه قدم خطابا شـاملا وعميقا، استوعب وتجاوز كل ما وجهناه من انتقادات ومقترحات.

هذا الجو العام فى الشارع وفى الحوار السياسى لم يكن مفاجئا لى تماما، ولكن لا شك أن ما رأيته وسمعته يفوق كل ما قدرت، وهم يعترفون فى إيران بأن درجة حرارة الجو السياسى ـ بعد وقف إطلاق النار ـ أعلى من معدلها الطبيعى.

ترى ما هى الأسس التى يستند إليها النظام السياسى؟ وكيف يدار النظام السياسى بحيث يسمح بقدر معقول من حرية الحوار ـ فى ظروف دقيقة وحرجة ـ دون أن ينهار النظام على رأس من بناه؟.

هذه الأسئلة ينبغى أن نلتفت إلى أهميتها، وتتضح أهمية الأسئلة حين تلحظ أن الفقه الإسلامى المعاصر ـ فى مصر وغير مصر ـ لم يلتفت كثيرا لأمور الحكم والسياسة، أى لم يهتم بتحديد قواعدها وضوابطها.. وإذا التفت نراه متوقفا عند الجانب الإيمانى الذى يمثل الأساس فى تربية المواطن، وفى توجيه الحكم، وهذا الجانب لا نقلل من أهميته بطبيعة الحال، فهو أصل الخير كله، ولكن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.. فما حدود السلطان التى تسمح بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ إن منع الاستبداد بالسلطة لا يترك لضمير الحاكم وحده، ولكن لابد من قواعد وقيود تمنع الحاكم عن الاستبداد حتى إن وسوس له شيطانه أن يفعل. كذلك لابد أن يتضمن النظام السياسى الإسلامى حوافز للمواطن كى يشترك فى إدارة المجتمع، وفى إصلاح ما يراه معوجا، فما هى تلك القواعد والحوافز التى تستنبط من الأصول الإسلامية وتتفق مع طبائع مجتمعنا؟ هذه الأسئلة أزعم أن مفكرينا الإسلاميين المعاصرين قصروا فى بحثها. وقد تابعت العمل العظيم الذى يقوم به الآن عدد من الأبناء الموهوبين فى مجال العلوم السياسية، وأشير بشكل خاص إلى الدكتور سيف الدين عبد الفتاح (التجديد السياسى والخبرة الإسلامية، رسالة دكتوراة) وإلى الأستاذ نصر محمد عارف (نظريات التنمية السياسية الإسلامية المعاصرة ـ رسالة ماجستير). لقد قام هذان الباحثان بجهد علمى رائع، واعتبر عملهما من بشائر الانتصار فى عصر الصحوة بإذن الله، حيث تنجذب

العقول المبدعة إلى الإسلام وتجدد فكرنا على نحو يمكننا من مواجهة مشكلات بلدنا وعصرنا باجتهاد أصيل. إلا أننى آخذ على الدراستين مع ذلك تركيزهما على الجانب التقليدى الذى أشرت إليه، أى جانب الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وكيف أنه يضع أساسا متينا لنظام سياسى واجتماعى مغاير لنظم الغرب الدنيوية والمادية، ولكن كيف يضبط الفقه الإسلامى قواعد السلطان وفقا لأحكام العصر وإمكاناته؟ وليس وفقا لما شاهده الماوردى وغيره على أيامهم؟ هذا السؤال على أهميته لم يكن للأسف محل التركيز فى الرسالتين المشار إليهما، كما هو الحال فى كل الكتابات الاسلامية المعنية بأمور السياسة.. ونحن نسلم طبعا أن هذا الجانب هو الأصعب، ولكن لابد منه إذا كان لنا أن نطمئن الناس بكلام علمى محدد إلى مستقبلهم فى ظل الحكم الإسلامى.

الكتاب الجديد المهم لآية الله المنتظرى

ولاشك أن الجمهورية الإسلامية فى إيران تقدم تجربة فقهية وتجريبية تستحق الدراسة والتأمل من المنظور الذى ذكرناه، وأعتقد أن الكتاب الأخير لآية الله العظمى المنتظرى (ولاية الفقيه) يعد أشمل دراسة فقهية معاصرة عن الموضوع.. هذا الكتاب رأيته فى طهران، وهو يتكلم عن كل جوانب الدولة الإسلامية فى منشئها وتاريخها وعالمها الحديث، وهو يعمق فكرة التوازن داخل الدولة باعتباره الأساس لمنع الاستبداد. إنه يتكلم عن السلطات الثلاث (التنفيذية والتشريعية والقضائية) وكيف تعمل داخل الدولة الإسلامية فى إطار الضوابط الشرعية.. ولاشك أن المنتظرى استفاد فى مؤلفه من التجربة التى عاشها وشارك فى صنع مراحلها المختلفة.

إن الإشارة إلى هذا الكتاب (ولاية الفقيه) وإلى التجربة الإيرانية، لا يعنى قطعا أننا بصدد تجربة مثالية متكاملة، فالأمر فى تقديرى مازال بعيدا عن أن يكون كذلك، ومن ناحية أخرى فإن أوضاع إيران لها خصوصيات عديدة تجعلها مخالفة

لظروفنا من زوايا عدة.. ولكن التسليم بهذا كله لا ينفى قطعا أهمية أن ندرس ونتعلم من إيجابيات ما يجرى هناك ومن السلبيات

السلطات الثلاث فى إيران

إن الدستور الإيرانى يقوم منذ البداية على تنظيم العلاقة بين المؤسسات المختلفة، على نحو يحقق التوازن بينها بحيث لا يستطيع الاستبداد بالسلطة حاكم مفرد أو سلطة بعينها. بل يبدو أن التجربة الإيرانية ذهبت فى ذلك إلى مدى أبعد من المطلوب بحيث أصبح من المتعذر أن يصدر قرار فى الوقت المناسب عبر كل هذه المؤسسات.

إن الدستور الإيرانى ينشئ (إلى جانب المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية) هيئة المحافظة على الدستور، وهذا المجلس بمثابة محكمة دستورية ومجلس تشريعى أعلى، فمن حق هذا المجلس أن يعترض على أى مشروع يقرره البرلمان (مجلس الشورى) أو تصدره الحكومة إذا رأى أن فى المشروع ما يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية. (وكثيرا ما رأى وأوقف تشريعات مهمة).. وفوق هؤلاء جميعا يوجد «الفقيه»، وهو يتدخل لضمان الاستقرار وسلامة العلاقات بين القوى المختلفة، ومهما قيل عن ضخامة الدور المسند للفقيه (وخاصة حين يكون الخمينى) فإنه يصعب فى الحقيقة تصور أن بوسعه أن يقرر ما يشاء متجاهلا كل من حوله، ويبدو أن دوره الأساسى ـ فى أغلب الحالات ـ هو التوسط بين كل الأطراف للوصول إلى صيغة تحوز القبول العام، وهذا فن بالغ الصعوبة لو تعلمون!

إلا أن المؤسسات والسلطات لا تعمل فى الحياة أبدا بشكل آلى ونمطى حسب ما جاء فى الدستور، أى دستور، فالسلطات تتشكل فى النهاية من بشر أحياء لهم اجتهاداتهم وظروفهم. وبالفعل ستلحظ فى إيران أن السلطة التنفيذية اكتسبت أشكالا خاصة لم ينص عليها الدستور. فبعد انتصار الثورة رأى الثوار أن الجهاز

البيروقراطى العتيد للدولة الإيرانية لا يمكن الاستغناء عنه جملة، وفى الوقت نفسه رأوا أن هذا الجـهـاز لا يحـقق طموحـات الناس لـبناء نظام جـديد للحكم يشـجع الجماهيـر الواسعة على المشاركـة فى العمل التنفيذى، أى توسيع مـا يسمى عندنا بالحلول الذاتية والحكم المحلى وما أشبه.

وإضافـة إلى السلطات المنصـوص عليها فى الدسـتور، والسلطات الـتى نشأت ونمت إلى جوارها دون أن ينظم الدستـور شأنها، إضافة إلى ذلك فـإن فى المجتمع فئات متبـاينة ومجموعات مصالح من كل نوع، وهؤلاء لهم مفـاهيمهم وحساباتهم فيـؤيدون بعض القرارات، ويتكتلون لمنع قرارات أخـرى.. وحتى إذا لم يتكتلوا ولم يتكلموا، فإن أصحاب الأمر (فى السلطات الثلاث) يعرفون مجموعات الضغط هذه، ومن فنون الحكم الرشيد أن يضع ولى الأمر فى حساباته ـ قبل إصدار أى قرار ـ ردود الأفعال المتوقـعة من «مفاتيح البلد»، أى من الأشخاص والمجموعـات صاحبة التأثير النافذ فى الرأى العام.

وفى إيران ـ ككل بلاد الدنيا ـ توجد بطبيعة الحال مـجموعات ضاغطة وجهات مؤثرة.. ومعـروف أن الجيش فى كل المجتمعات يـأتى على رأس الفئات المؤثرة فى السـيـاسـات العامـة، ورغم أنه لم يـنص على هذا الدور السـيـاسى المؤثر فى أى دستـور، فإن هذا الدور مـوجود دومـا.. وويل للحاكم (وللمـشتـغلين بالسيـاسة عموما) إذا هم نسوا فى حساباتهم أنه موجود!

جماعات الضغط: الشباب والجيش

والجيش فى إيران كـان قويا أيام الشاه، وكـان له دور فعلى فى تقـرير الأمور (بدون نصوص قانونية تفصح عن ذلك)، وقـد عاد الجيش إلى قوته الآن من حيث الكم، ومن المؤكـد أن دوره لا ينكر (من خـلال الحرب وتحـديات الأمن القـومى)، ولكن لا أظن مع ذلك (أو على الأقل لم أقـرأ) أن التحـليلات الغربـية ترشـحه الآن للوثوب إلى قمة السلطة، فمن ناحية ظهرت هنا ـ كما فى المجالات الأخرى ـ ظاهرة

الازدواج بين المؤسسات التقليدية ومؤسسات الثورة، فإلى جانب القوات المسلحة النظامية أصبح هناك الحرس الثورى، ومن حيث انتشار القوات، فإن الجيش على الحدود، وقوات الحرس الثورى قرب المدن لحماية النظام. وأعتقد أن هذا الترتيب لا تنفرد به إيران، إذ أصبحت هناك خبرة عامة بضرورة ألا يحتكر الجيش حق استخدام الأسلحة المتطورة.. ولكن ما تنفرد به إيران هو أنها تملك إلى جانب هذا «الرادع المادى» للانقلاب العسكرى، هيمنة العلماء المعنوية على كل المتحركين على المسرح السياسى (وضمنهم الضباط).. هذه الهيمنة أوضح من أن تنكر.

وضمن القوى الضاغطة والمؤثرة فى القرار الإيرانى نشير إلى الشباب.

لقد قامت الثورة على أكتاف الشباب.. والشباب هم الذين احتلوا السفارة الأمريكية عام ١٩٨١ (الطلبة السائرون على خط الإمام)، والشباب هم الذين دفعوا ثمن الحرب من دمائهم، والطلبة عبر تنظيماتهم مازالوا «سائرين على خط الإمام»، أى مازالوا «متطرفين»، يندفعون نحو الشهادة، وقد شكا اتحاد الطلاب إلى الإمام فى لقائهم معه فى بداية ١٩٨٨، قالوا: هناك من يدعوننا لترك العمل العام بعد أن أصبح فى يد أمينة، وهم يقولون لنا: إن اندفاعنا أصبح عقبة فى وجه النظام الجديد وفى وجه الاستقرار، فما فتواكم؟ وقد أفتاهم الإمام بأن هذا الكلام ـ فى رأيه ـ أخطر من الكلام الذى كان يقال فى الستينيات لإبعاد العلماء عن أمور المجتمع والجهاد.

العلماء وحوار مع مفكر شيوعى

إلا أن أخطر القوى الاجتماعية المؤثرة فى القرار، والتى لا يرد ذكرها طبعا فى الدستور، هى الفئة الممثلة فى علماء الدين. فهم شبكة لها من الحوزات (الحوزة: أستاذ ومساعدون وطلبة دراسات عليا). وهذه الحوزات مستقلة ماليا وعلميا ومنتشرة فى كل أنحاء البلاد، ولها اتصالاتها الخاصة، ولها آدابها وتقاليدها فى الحوار والتفاهم. ولعل استمرار هذا البناء التنظيمى ذى العلاقة الوثيقة مع التجار

ورجال الأعمال (البازار) هو الذى أظهر الآن ما يسمى بنظرية الثورة الأصيلة، وأعتقد أن الكتاب الذى ألفه فى هذا الشأن حجة الإسلام على الكورانى (وهو من المساعدين القريبين من المنتظرى) هو أكمل شرح قرأته، والفكرة تقوم على أن الثورة لا ينبغى أن تحطم العلاقات التى ألفها الناس واستراحوا إليها بالفطرة والتجربة، الثورة ليست مطالبة بأن تقيم تنظيمات جديدة تحل محل علاقات الأسرة والقبيلة والحوزة والبازار، ولكن عليها أن تزيل الصدأ كلما تراكم، وأن تعمل على تطوير هذه التنظيمات من داخلها وبصبر وهدوء، وحين يصل الإعداد إلى درجة معينة من النضج فإن انفجارا قد يحدث، ويؤدى لتغيير الحكم ولكن طاقة الانفجار ينبغى أن توجه نحو مزيد من تحسين العلاقات القائمة، ولا تنشئ مؤسسات جديدة إلا بالقدر الذى يخدم الأشكال التقليدية، ولا يتعارض مع استمرارها وتطويرها.

وقد تحدثت مع د. إحسان الطبرى (وكان من المفكرين الماركسيين البارزين المرتبطين بحزب تودة الشيوعى). وكان تحليله لتجربة الثورة الإيرانية يتفق تماما مع تحليل الكورانى، وقال: إن هذا الأسلوب الفذ هو الذى جعل الثورة الإيرانية قادرة على تحريك الأمة كلها، وهذا أسلوب يختلف عن أسلوب الشيوعيين، الذين يتصادمون مع كل ما هو قائم فى بلادهم من علاقات وتقاليد وأعراف، ويعجزون عن تغيير هذا الواقع إلا من خلال مؤامرة تقوم بها حفنة مثقفين تنتهز لحظة مناسبة للوثوب إلى الحكم بغتة، ثم تسعى للاحتفاظ بالسلطة عن طريق القمع والإرهاب.

ولكن إذا كانت الثورة بمثابة زلزال بالغ العنف أثر فى كل الكيانات القائمة فى المجتمع، فإن فئة العلماء لم تكن استثناء من ذلك، فقد أصاب الزلزال بناءهم كذلك. فآيات الله فى طهران وقم وفى المدن الأخرى لهم تأثيرهم فى سلوك الناس اليومى بلاشك، ولكن كان الناس فى الماضى يتحرجون من خضوعهم لقوانين الدولة،

ولرؤسائهم الذين لا يحسنون الظن فى إسلامهم، وبالتالى لم يكن الخضوع تاما أو صادقا، ولكنهم بعد الثورة أصبحوا يخضعون بإخلاص كامل لأجهزة الحكم وقوانينها وتعليماتها، ويعنى هذا أنهم أصبحوا لا يرون تعارضا بين أن يخضعوا لآيات الله فى أمور حياتهم اليومية والشخصية، وأن يخضعوا فى الأمور العامة لحجة الإسلام القابع فى موقع تنفيذى يصدر من خلاله الأوامر والقرارات (وحجة الإسلام أقل رتبة كما نعلم من آية الله).. ومن الأمور العادية الآن أن تجد آية الله جنتى مثلا يحتفى احتفاء غير عادى حين يستقبل حجة الإسلام رافسنجانى نائب القائد العام للقوات المسلحة ورئيس مجلس الشورى والمرشح لرئاسة الجمهورية فى الدورة القادمة.

روحانيون وروحانيات

وعلماء طهران المجاهدون كانت تنتظمهم جمعية اشتهرت باسم روحانيونى - مبارز (وأمينها العام آية الله محمد رضا مهدوى كانى، الرئيس السابق لمجلس الوزراء والمدير الحالى لجامعة الإمام الصادق). ومع تطورات الثورة ظهرت الخلافات فى صفوف هذه الجمعية، واتسعت الخلافات حتى انقسمت الجمعية إلى جمعيتين: جمعية مهدوى كانى، وقد احتفظت باسمها التقليدى (روحانيونى - مبارز)، بينما أطلقت الأخرى على نفسها (روحانياتى - مبارز)، وأمينها العام حجة الإسلام مهدوى الكروبى (نائب رئيس مجلس الشورى). وهذا الخلاف بين المجموعتين ينعكس الآن فى كل الخلافات السياسية القائمة على المسرح الإيرانى.

وشائع الآن أن الروحانيين يؤيدون رافسنجانى، ويؤيدون سياسات تقوم على تشجيع القطاع الخاص وإعطائه دورا أكبر فى التنمية الاقتصادية، وشائع كذلك أن (روحانياتى) تؤيد مير حسين موسوى (رئيس مجلس الوزراء الحالى) أو حجة الإسلام موسوى خو إينيها (المدعى العام)، وهذا الاتجاه يؤيد سياسة التوسع فى القطاع العام ودور الدولة على حساب القطاع الخاص.

وكما قلت فى صدر المقال، فإن درجة الحرارة فى الجو السياسى تزداد ارتفاعا منذ وقف إطلاق النار، وقد حاول الإمام أن ينفى لفترة ما أن الخلافات وصلت إلى الدرجة التى يتحدث عنها البعض، ففى أول أكتوبر ١٩٨٨، قال للأمة: إن أصحاب المؤامرات الشرقية والغربية طرحوا بخبث «أن الشخصية الفلانية فى الجمهورية الإسلامية لها ميول يمينية أو معتدلة أو مساومة أو غربية، أو أن فلانا مسئول متطرف أو ثورى، متصورين أن ذلك سيسحب ثقة الشعب من المسئولين فى الجمهورية الإسلامية، ولكن بإذن الله ووعى الشعب فإن سوق هذه البضاعة سيكسد، ومشترو هذه البضاعة قلة».

وقد كانت المناسبة التى قال الإمام هذا الكلام مرتبطة بأن رؤساء السلطات الثلاث ورئيس الوزراء وجهوا خطابا له، طلبوا فيه تحديد مسئوليات كل منهم فى عملية إعمار البلاد، بعد أن عجزوا هم عن الوصول إلى اتفاق، ولكن معروف أنه كان قد استقبل قبل ذلك رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، حيث قدما إليه تقريرين منفصلين عن أوضاع السلطة التنفيذية، تعبيرا عن الخلاف بين الرجلين؛ ونشر ذلك فى آخر آغسطس فى كل الصحف.

وقد امتدح الخومينى فى هذا اللقاء جهود مجلس الوزراء فى الحفاظ على قدرات الأمة خلال الفترة الماضية، ولكنه فوجئ بعد ذلك بأسبوع بأن مير الموسوى (رئيس الوزراء) يقدم استقالته (٧ سبتمبر)، وكتب له الإمام «لقد كانت استقالتكم مدعاة للدهشة. كان من واجبك أن تخبرنى على الأقل أو تخبر كبار المسئولين بهذا الأمر، إذا كنت مصمما على اتخاذ هذا القرار».. ثم أصدر إليه قراره «عليكم أن تواصلوا خدماتكم فى خندق رئاسة الحكومة وفى إطار الإسلام والدستور».. وكان الموسوى قد برر هذه الاستقالة بأن مجلس الشورى يعترض على ثمانية أشخاص رشحهم لمناصب وزارية شاغرة.. وبالتالى فإن عمل الحكومة متعثر.

هذه مجرد عينة، وقد انتقل الحديث عن الخلافات بين «المعتدلين» و«المتطرفين» إلى الصحف، وأصبحت المناقشة فيه علنية ومشروعة تماما، رغم صدور القرار بوقف نشاط حزب الجمهورى الإسلامى (لحدة الانشقاقات داخله).

إلا أن الخلاف الفقهى والسياسى الرئيسى هو الخلاف الذى يدور الآن على محور المنتظرى - رافسنجانى.. ولكن هذا الخلاف مازال بعيدا عن النشر فى الصحف الإيرانية، وإن أصبح أمرا متداولا فى أجهزة الإعلام الخارجية، وذائعا فى الدوائر المعنية داخل الجمهورية الإسلامية.

*****

■ ٣ ■

ماذا فى إيران الاسلامية بعـــد وقـــف القتـــال؟

■ البنوك الإسلامية

وشركات توظيف الأموال . . فى إيران

■ بدلا من السنة فى مواجهة الشيعة . .

الإسلام المحمدى فى مواجهة الإسلام الأمريكانى

■ الخومينى والمنتظرى أوقفا معركة القروض الأجنبية مؤقتا

■ مصر لها وزنها الخاص فى الاستراتيجية الإيرانية

مــاذا بعــد وقف القــتــال؟ مــاهو الدور المصــرى المحــتمــل فى هذه المرحلة الجديدة.. بعــد وقف اطلاق؟ ما دور الدولة المصــرية فى التوصل الــى تسوية مــســتــقرة بين العــراق وايران؟ وهل تتــعارض الســيــاسيــة الواجبــة للدولة المصريــة نحو التضــامن العربى.. مع فــتح صفــحة جــديدة فى علاقاتــها مع الجمهورية الاسلامية الايرانية؟

فى كل الأحوال.. ينبغى أن نعرف بأمانة ـ على الأقل ـ حقيقة ما يحدث فى هذا البلد الكبير وهذا ما حاولت أن أفعله، وأشرك القراء فى حصيلة ما وصلت اليه.

فى الطائرة المتجهة الى طهران جلس الى جوارى ممثل لشركة يابانية فى منطقة الشرق الأوسط، وقد سألته، عن الأحوال فى ايران، فقــال انها تشبه الى حد كبير الأحوال فى بلدكم.. وقد لاحظ ـ وله حق ـ أننى دهشت، فاســتطرد موضــحا: وجه الشبه أنهم يسعون مــثلكم الى تخفيف البيروقراطية وتيســير التعامل مع الأسواق الخارجيــة، وهم وأنتم تفعلون ذلك فى بطء وتخبط.. عفــوا انا لم أعرف رأيك فى السياسة الاقتصادية المصرية.

قلت: اتفق معك فى أننا نتصرف بتثاقل شديد وكفاءة منخفضة فضلا عن الخطأ فى تحديد الأهداف.

حسن.. ولكن هذه السمات ترجع عندكم ـ ولا مؤاخذة ـ الى طبيعة الشخصيات المسئولة بينما ترجع فى ايران الى تعدد مراكز اصــدار القرار، فما يصدر من جهة قد يلغيه قرار يصدر من جهة أخرى.

والرجل مــصيب.. وقد أشــرت الى تعدد السلطــات والمؤسسات وأشــرت بشكل خاص الى الخــلاف حول القطاع العام وعلاقــته مع القطاع الخاص.. فــهناك اتجاه

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٩٨٩/٢/٢٨

يرى التركيز على دور القطاع العام، ويقابله اتجاه ثان يركز على دور القطاع الخاص.. وغنى عن البيان أنه لايوجد فى ايران من يطالب برفع يد الدولة تماما عن ادارة الاقتصاد القومى، فهذا مستحيل، فضلا عن أنه مرفوض شرعا..

ويكفى أن نتذكر أن البترول يمثل حوالى ١٦٪ من الناتج المحلى الاجمالى، وهو المصدر الأساسى للنقد الأجنبى، وهذا البترول (زيتا وجازا ـ انتاجا وتكريرا وتسويقا) فى يد الدولة فكيف تتخلى الدولة عن القيام بدور اقتصادى محورى؟

اما عن الناحية الشرعية، فإننى أحيل من يشاء الى «رسالة الاحتكار والتسعير» التى كتبها آية الله العظمى المنتظرى. والمعروف عن آية الله المنتظرى أنه ضد احتكار الدولة لأبواب الرزق، وضد التدخل الضار فى حركة الأسعار، اذا كانت الحركة طبيعية وتعكس ظروف السوق الحرة، ولكن اذا كان من الأفراد من يحتكرون ومن يغيرون المسار الطبيعى للأسعار بهدف تحقيق ربح حرام، يصبح من واجب الحاكم الاسلامى أن يتدخل «لمراقبة الأسعار ومنع الحصارات الاقتصادية والاحتكارات الضارة بالمجتمع».. والمؤمل من المسئولين فى الدولة الالتزام الكامل بالموازين الشرعية، والاحتزاز عن الميل الى أحد طرفى الافراط والتفريط. وقد قال أمير المؤمنين (ع): اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هى الجادة». (يلاحظ أن الكلام المنقول يمثل اسلوب المنتظرى باللغة العربية).

وقد كتب الامام الخومينى فى الاتجاه نفسه فقال إنه «عندما تنتهى الحرب سيكون الشعب حرا فى الأعمال التجارية، ولكن تحت اشراف الحكومة، سيسمح للشعب باستيراد البضائع، ولكن على الحكومة ان تراقب الأمور حتى لايحدث الفساد، فهذا الأمر مهم ويجب التدقيق فيه».

الخلاف مفيد طالما نتفق فى المبادئ

ان آية الله الخومينى ناصر أحد الفريقين المتخالفين، فأيد الحركة الاقتصادية فى أطار الضوابط الاسلامية التى تشمل تحديد الأهداف التنموية، وضمان العدل.

ورغم مناصرته لأحد الفريقين دافع عـن حق الفريق الآخر فى الوجود وفى الدفاع عن رأيه. فحـين سأله حـجة الاسلام انصـارى (أحد أعـضاء مكتبـه) عن رأيه فى وجود جناحـين فكريين داخل الجمـهورية الاسلامـية، أجاب الخـومينى بان «باب الاجتـهاد مفتـوح فى الحكومة الاسلامـية، وأن طبيـعة الثورة تقـتضى بأن تطرح وجهات النظر الفـقهية فى مخـتلف المجالات وفى وسائل الاعلام كافـة» وقد أشار الامام الخـومينى الى «ان الاختـلاف فى وجهات الـنظر هو اختلاف سـياسـى لأن الجميع يشتركون فى المبادىء، ولذا فـان الاختلاف ـفى هذه الحدودـ يخدم الثورة الاسـلاميـة، وقـد أوضـح سمـاحتـه الأوجـه المشتـركـة بين الجناحـين الفكريين الموجـودين فى الجمـهورية الاسـلاميـة فقـال «ان الجناحين ملتـزمان بالاسـلام والقـرآن والثـورة، ويريـدان خير البلاد والشعب، ولهما مواقف ثابتة من أجل نـشر الاسلام وخدمة المسلمين، ومهما كانت الخلافات حول النظام الاقتصادى وسياسـاته فان الجناحيـن يريـدان أن تكون الـبلاد مستقلة، ويـرغبان فى أن تتخلص البلاد والشعب من الجشعـين والناهبين، وهما يريدان يزدهر الاقتصاد فى ايران الاسلام».

هل أصبحت البنوك إسلامية

من منظور اسـلامى، ومنظور تنمـوى، كان ضـروريا أن أسأل عـما جـرى فى القطاع المصرفى، وقـد قامت ايران بعد الثـورة بتأميم البنوك، وهذا الاجـراء حقق بلاشك تخليص الاقتصاد الايرانى من قبضـة البنوك الأجنبية، وما تحمله من نفوذ صهيونى، ولكن هل من الضرورى أن تظل البنوك التجـارية والمتخصصة كلها فى يد الدولة؟ ولماذا لا تنشـأ بنوك وطنية يملكها القـطاع الخاص؟! أظن أن الآراء التى رجحها الخومينى والمنتظرى تؤدى منطقيا الى هذه النتيجة.

وماذا عن تحول البنوك المؤممة الى بنـوك لا ربوية؟ لقد أعلن منذ عام ١٩٨٥ أن البنوك توقـفت عن التعامـل بالربا، وعلمت أنهم حقـقوا هذه الخطوة بعـد دراسات

مستفيضة، والدراسات الصادرة فى المنطقة العربية كانت محل اهتمام خاص، الا أن التجربة ـ مع ذلك ـ مازالت تتعثر، ويسخر بعض علمائهم مما يجرى فى هذه المصارف، ويقولون انها مازالت تتعامل بالربا ولكن تحت اسم آخر!

وهذا التعثر يبدو عجيبا، فالبنوك الاسلامية تتعلل عندنا بأن المناخ السياسى والاقتصادى لا يناسبها، وهى تقول ـ ولها حق ـ إن البنوك الاسلامية تتطلب دولة اسلامية ونظاما اسلاميا متكاملا اذا كان لها أن تزهر وتنتعش.. هذا ما تقوله البنوك عندنا، فما هى حجة البنوك فى ايران؟

يبدو أن الذنب بالكامل يقع هناك على عائق البنوك، ويبدو أن البنوك فى ايران هى ككل المؤسسات الأخرى التى ظهرت قبل الثورة، فهى مؤسسات عملاقة وعتيدة.. والمؤسسات كالأفراد، فانت يسهل عليك أن تعلم الصغير اللغات والحساب وكل فنون الحكمة وقواعد السلوك، بينما يصعب عليك جدا أن تعدل فى مسيرة الشخص وتصحح عاداته اذا تجاوز سنه مرحلة التكوين والنضج.. والمصارف الايرانية نشأت ونمت (بأشخاصها ونظمها) على التعامل الربوى، ويصعب أن يتغير ذلك بالكامل لمجرد أن قراراً قد صدر.

وقد حدث لمواجهة هذا الحال أن نشأت مؤسسات جديدة الى جوار المؤسسات التقليدية، حدث هذا فى مجالات الدفاع والأمن الداخلى والاعلام والخدمات.. الخ. والتعامل بين القديم والجديد ـ بهذه الطريقة ـ كان فى ظنى مجديا، فهل حدث ما يشبه ذلك فى القطاع المالى والنقدى؟ يبدو هذا.. فالبنوك ـ حسب التقارير السنوية للبنك المركزى ـ لم تزد ودائع القطاع الخاص لديها منذ سنوات بعيدة زيادة حقيقية، أى اذا حسبت الأرقام بالأسعار الثابتة وليس بالأسعار الجارية، ولا تعنى هذه الظاهرة أن معدل النمو للقطاع الخاص كان صفرا، أو أن ميل الناس للادخار قد انعدم، ولكن كان العائد الذى تقدمه البنوك لصاحب المدخرات حوالى ٨٪ وهذه النسبة أقل من معدل التضخم (أو التورم ـ بتشديد الراء ـ كما يقال فى ايران، وهو

مصطلح أروع وأدق)، تماما كما هو الحال فى مصر*، وبالتالى فانها لعبة خاسرة تماما ان تضع مدخراتك فى البنك.. وانت تظل تخسر إن امتنعت عن صرف العائد واضفته الى رصيدك فى البنك. اين تذهب مدخرات الناس اذن؟ بالبحث والتنقيب ثبت أن أصحاب المدخرات استمروا فى مواصلة صيغ العمل الاسلامية (المشاركة والمضاربة.. الخ) مع أهل «البازار»، أى التجار وأصحاب البضائع، فهذا عندهم أقرب إلى الحلال من التعامل مع البنوك، وهو يحقق عملا يراه الناس بأعينهم، ويدر دخلا أعلى مما تدفعه الحكومة عبر «المصارف الإسلامية» بضمان البنك المركزى!

وبعبارة أخرى، اتسع عندهم ما يشبه شركات توظيف الأموال عندنا (بحجوم صغيرة متوسطة) ولأسباب تشبه الأسباب التى أدت إلى انتشار هذه الظاهرة فى مصر وباكستان... وقد سألت د. زارين قلم رئيس قسم البحوث الاقتصادية فى البنك المركزى: لماذا لا تشجعون قيام مصارف محلية مستقلة تعمل على تعبئة المدخرات فى الأحياء والقرى، وتساهم فى إقامة أو تمويل مشروعات صغيرة ومتوسطة؟ إن هذا الطريق أقرب إلى إنشاء البنوك غير الربوية، بدلا من الاقتصار على تحويل البنوك العملاقة القائمة، وهذا المنهج الذى يبدأ فى القاعدة العريضة هو تطوير وتقنين لمشروعات المشاركة القائمة فعلا.. وسألت كذلك د. زارين عما إذا كان قد اطلع على آراء د. أحمد النجار (الأمين العام لاتحاد البنوك الإسلامية) فى هذا الشأن؟ وعما إذا كان قد قرأ عن تجربته فى بنوك الادخار (ميت غمر) تحديدا؟

فخ القروض!

إن هذا الذى نذكره على صلة مباشرة بالخلاف بين أنصار التركيز على القطاع العام، وبين الداعين لإطلاق القدرات والمبادرات الذاتية لملايين المواطنين فى

* تغير هذا الحال فى مصر الان حيث أصبح سعر الفائدة يتجاوز معدل التضخم.

مشروعات متنافسة وإبداعات متتالية ومتصاعدة.. وهو على صلة أيضا بالخلاف الدائر حول الموقف من القروض الأجنبية.

فمع نضوب الموارد ومع الرغبة فى تسريع الإعمار و التنمية وتحسين أنماط الاستهلاك، تقدمت بعض الهيئات الدولية، وكل الحكومات (فى الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى) بمشروعات قروض، وظهر اتجاه غالب داخل الأجهزة السياسية والتنفيذية لقبول المبدأ الذى رفضته الجمهورية الإسلامية خلال السنوات العجاف السابقة.. والاتجاه يحظى بقبول ضمن مؤيدى النشاط الاقتصادى الموجه للأفراد، وكذلك ضمن المطالبين بالهيمنة الصارمة والمباشرة للدولة. وفى حديثى مع رئيس قسم البحوث الاقتصادية فى البنك المركزى لاحظت أنه امتنع عن الإجابة حين سألته عن رأى البنك المركزى فى موضوع الخلاف، إذ قال. إن البنك لا رأى له فى الأمر (وهذا مستحيل!) وأضاف: إن القروض لن تقبل ولن تستخدم إلا إذا وافق مجلس الشورى على الاتفاقيات الخاصة به.

طبيعى ألا تتقرر قروض إلا بموافقة المجلس، ولكن ما رأيك أنت شخصيا، إذا كان لك أن تنصح الحكومة ومجلس الشورى؟

إن القروض إذا كانت إنتاجية ستسهم فى تشغيل الطاقات العاطلة، وهذا يساعد على زيادة الإنتاج المحلى فتقل حاجتنا للاستيراد، ويؤدى توفر السلع إلى كبح جماح التضخم (التورم).

ولكن ألا تعلم أن الجهات المقرضة لن تقدم أية تسهيلات تذكر إلا إذا أعلن صندوق النقد (ومن خلفه دول الاستكبار المعروفة) شهادة «حسن سير وسلوك» فى حق الاقتصاد الإيرانى؟

نحن لم نستقبل بعثات من صندوق النقد الدولى منذ سنوات، وكنا خلال هذه السنوات نحجب المعلومات والبيانات عنهم، لأنا نعتبرها من أسرار الأمن القومى التى لا يجوز لهؤلاء الناس أن يطلعوا عليها.

هذا كلام كنت ألمسه لدى مطالعتى للتقارير المختلفة الصادرة عن صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، إذ كنت ألحظ أنهم يكتبون «لا توجد معلومات» أمام كل المؤشرات التقليدية عن حجم الناتج القومى الإيرانى مثلا أو ميزان المدفوعات والميزانية العامة... إلخ.

ولكن بعيدا عن بيانات الاقتصاد الإيرانى، معروف أن للصندوق وصفة نمطية لما يسميه «الإصلاح الاقتصادى»، فهل أنتم مستعدون لتنفيذ ما يطلبه الصندوق من أجل الحصول على قروض؟

نحن نتحكم فى الأسعار، أى ندعم أسعار السلع الضرورية حتى لا ترتفع وترهق الفئات محدودة الدخل، ونحن غير مستعدين لتغيير هذه السياسة لإرضاء الصندوق أو غيره.

*****

وقد فتحت الموضوع مرة أخرى فى لقاء مع السيد بشارتى (نائب وزير الخارجية) الذى بدا لى أنه من المتشددين. قال بشارتى. «إن الوفود من كل الجهات تتدفق علينا منذ وقف إطلاق النار. (فى لحظة حديثى معه كان فى طهران ١١ وفدا أجنبيا على مستوى رفيع)، ومشروعات القروض تقدم فعلا بسخاء، ولكننا حتى الآن نتعامل مع الأمر بحذر شديد ـ لقد كنت فى زيارة بولندا مع د. على ولاياتى (وزير الخارجية) وسمعنا بآذاننا مأزق الدين الثقيل الذى سقطت فيه بولندا.. نحن لسنا مستعدين لأن نكون فى حالة كهذه، ثم نحن نعرف مكر الأمريكان.. والغربيين، نحن نذكر تماما ما كان يجرى فى عش الجواسيس (يقصد السفارة الأمريكية) ونعرف كيف يخططون لإعادتنا إلى التبعية.»... قال بشارتى هذا ثم عرض على الأظافر الأربعة ليده اليمنى.. وبعد لحظة صمت قال: «إن أظافرى نزعها السافاك ـ بأمر من الأمريكان ـ يا سيدى!».

الخومينى حسم الأمر مؤقتا!

ولكن ما يدور فى الكواليس يشير إلى أن أغلب المسئولين فى الأجهزة التشريعية والتنفيذية يؤيدون فتح الباب بحذر أمام القروض، والصحف فى أغلبها تدافع عن وجهة النظر هذه.. ووصل الحال بآية الله المشكينى (الفقيه المشهور ورئيس مجلس الخبراء) أنه أعلن تأييده للقروض الأجنبية فى خطبة الجمعة (أى فى المؤتمر الحاشد) فى مدينة قم.

إلا أن بعض كبار العلماء تدخلوا... وفى رسالة تاريخية إلى الإمام الخومينى قالوا: «ندعو الله ألا تتجرعوا السم مرة أخرى». وكان القصد أن قبول القروض يشبه قبوله بوقف إطلاق النار الذى وصفه الخومينى بأنه كتجرعه السم، وقد استجاب الخومينى للتحذير، وصرح بأنه يعتقد أن كل المسئولين يؤيدون ذلك.. وهو يلجأ عادة إلى مثل هذا التعبير الملفوف ليسمح للمخالفين أن يراجعوا مواقفهم بأقل حرج ممكن..

وهذا من تقاليد الحوزة العلمية وآدابها.. فتدبر!

هذا التصريح صدر قبل وصولى إلى طهران، ولعله السبب الكامن خلف الإجابات التى سمعتها، والتى أضيف إليها تصريحات غامضة عن الموضوع سمعتها من رافسنجانى.. ولكننى أتصور مع ذلك أن المسألة لم تحسم حسما نهائيا.. وأظن أن الصراع فى قضية «آيات شيطانية»، والذى أدى إلى سحب السفراء الأوروبيين فى طهران، سيؤثر بدرجة أو بأخرى على الموقف من القروض ومن العلاقات مع الغرب عموما (سلبا أو إيجابا).

الإسلام المحمدى والإسلام الأمريكانى

ويجرنا ذلك إلى السياسات الإقليمية والدولية. ويبدو لى أنهم دبروا لإيران موقعا فى المخطط العام الذى يقيم عددا من المحاور المتنافسة داخل المنطقة العربية ـ الإسلامية، والمحور المرشح لحركة إيران يشمل أفغانستان ـ باكستان ـ إيران،

وغـرق إيران فى مشـاكل إعمـار مـاخربتـه الحرب، ومـشـاكـل التنميـة ومشـاكل القروض.. ومشاغل المحور الجديد.. قد يغنيها أو يصرفها عن المشاركة فى التحرك غربا نحو أرض الصراع العربى ـ الإسرائيلى!

هذا مـا يقـصده «شـيـاطين الغـرب»، ولكن لا أتصـور أن من يحكمـون إيران سيقـبلون العزلة وإلقاء راية التضامن مـن أجل النهضة الشاملة للأمة الإسـلامية، وأعتقد أن «الفقيه» يضع كل ثقله فى هذه الكفة.

إنه يقول فى تعـليماته إلى السلطات الثـلاث (أكتوبر ١٩٨٨): «إننـى أتابع بدقة السيـاسة الداخليـة والخارجيـة للبلاد ولن أسـمح مادمت حيـا أن تتغـير مسـيرة سياستنا الواقعـية، وإن المسئولين لا يبغون شيئا غـير هذا ولا يتوقع منهم سواه.. وأقول للمـسئـولين: إن الواجب الشرعى يقـضى بأن تعملوا على اجـتثـاث جذور التبعية إلى الخارج فى كل مجال، وإن شاء الله ستقومون بذلك».

وهو من ناحية أخرى يخاطب جماهير الشـباب المجاهد والمعد للاستشهاد، أو ما يسمى قوات التعبئة (البيـسيج): «إننى أؤكد مرة أخرى لكافة أبناء الشعب الإيرانى العظيم وكافـة المسئولين أنه لمن أكـبر السذاجـات أن نظن فى زمن الحـرب أو زمن السلـم أن أمريكا وروسـيا سيكفان عنا وعن الإسلام الحـبيب، وأتمنى ألا يأتى ذلك اليوم الذى نغفل فيه ولو للحظة عن كيد الأعداء». (نوفمبر ١٩٨٨).

وقد لاحظت أنه يجرى الآن تركـيز على ما يسمونه «الإسلام المحـمدى» ليجمع كل من يجـاهدون فى سـبيل الله والرسـول(صلى الله عليـه وسلم)، مـتجـاوزين انقسامهم التقليدى إلى سنة وشيعة، ومواجهين للانقسام المعاصر بين هذا الإسلام المحمدى و«الإسلام الأمريكانى».

والإمام الخومينى (ومعه كل القيادات المسئولة) يعرفون الإسلام المحمدى بأنه «يقوم على مقارعة الاستكبـار ونبذ حب المال والتحجر وجهل المتنسكين، ويجب أن يكون أصحـاب هذا الخط مدربين معنويا وماديا على مـهام الجهاد، فـالشعب الذى

يرفض أن يكون تابعا للشـرق أو للغرب، هو الشعب الذى يمتلك أبناؤه الاسـتعداد القتالى اللازم» (الخومينى).

المكانة الخاصة لمصر

إلا أن هذا الحديث عن «الإسلام المحمدى»، ووحدة الأمـة الإسلامية، لا يتعارض عندى مع مـا سمعـته فى إيران عن أولويات فى السـياسـة، وعن ضرورة تركـيز الاهتمـام على المناطق الشرقـية جغـرافيا، فـهذا كلام واقـعى وصحـيح طالما يقال ويتحقق بحسابات عاقلة إسلاميـة، وليس لحساب «الشياطين».. وإذا كان التخطيط والتحرك يتـمان بتدبير إسـلامى، فإن الاهتمام بمنطقـة معينة سيـتكامل مع العمل الإسـلامى فى المناطق الأخرى، ولـن يكون محـورا يصـارع المحاور المغـايرة كمـا يقصد الأعداء.

والحقيقة أننى لمست اعتزازا زائدا بالنفس لدى الإيرانيين، أحسب أنه يحتاج إلى يقظة خاصة ودائمة من أصحابه.

وفى كل الأحوال، فـإن الخليج عندهم فارسى، على الأقـل من حيث الاسم، ولا يقبلون فى ذلك أية مراجعة، وهم لا يرون فى اسـتيلاء الشاه على بعض الجزر أى خطأ.. وقـد حدثونى فى الخـارجـية حـديثا مطولا عـن هذه الجزر، وعن طبـيعـة علاقاتهم التاريخية مع الإمـارات العربية على الساحل الغربى من الخليج.. وبغض النظر عن الصحيح والخطـأ فى أمر ما قالوا، فإن على كل من يعنيـه الأمر أن يقيم حساباته على أنهم يفكرون بهذه الطريقة.

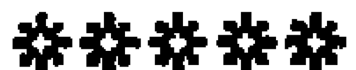
وهناك حقيقة أخرى فى العقل الحضـارى والسياسى لإيران... هذه الحقيقة هى تقديرهم للـوزن الخاص لمصر.. العلمـاء فى الحوزات يذكرون الكـتب التى قرأوها لمؤلفين معاصرين من مصر، بدءا من كـتب الشيخ مصطفى المراغى عليه رحمة الله (الشيخ الأسبق للأزهر)، إلى كـتب الشهيد سيد قطب: ومرورا بعـباس العقاد ومن

شابهه.. وقد قال لى السيد على خامنئى (رئيس الجمهورية)أنه قام بنفسه بترجمة بعض كتب المفكرين المصريين إلى الفارسية.

إضـافة إلى هذه الرابطة الحـضـارية العمـيقـة مع النخـبة الحـاكمـة فى إيران الإسلامية، قيل لى فى الخارجية، إن رؤية إيران لمصر تعتبر من المحاور الثابتة فى الاستراتيـجية الإيرانية.. «وإذا كنـتم تتحدثون عن العرب باعـتبارهم شيـئا واحدا، فإننا لا يمكن أن نتحـدث عن العرب على هذا النحو، فنحن نرى مصر قوة مـتميزة وقـائدة، ولذا نرجـو أن تزول الأسـبـاب التى أدت وتؤدى إلى التـحـارب وتدهور العلاقات، فإذا هيأ الله ظروف اتفاق بين مصر وإيران يكون هذا علامة على أنه قد أذن لنهضة الإسلام المعاصرة لكى تظهر وتتمكن..

وقد قال لى مصدر آخر فى الخارجية: متى تتسلم مـصر مسئوليتها الإسلامية فتتـولى تبليغ الدعوة والجهاد فى أفـريقيا، بينما نساندها نحـن ونكمل دورها عبر التبليغ والجهاد فى آسيا.

يارب!



الجزء الثانى

■ ١ ■

لتكن خطب الجمعة دعاء لقمة العرب وشرحاً لغدر اليهود

■ لا مواجهة مع الصهاينة ولا تحرير للقدس
إلا بمصالحة مع الحركة الإسلامية

■ الإسلام فى تركيا هو الذى سيحطم الحلف مع إسرائيل

■ إيران الإسلامية تقود أخطر ثورة اقتصادية عالمية ..
وتستخدم قوتها لردع الصهاينة

■ التهديدات العسكرية ضد سوريا خطيرة ووشيكة ..
ما موقف حكام العرب؟

■ يا أهل الحكم فى مصر والسودان:
كونوا قدوة فى حل المشاكل العربية

غدا تنعقد القمة العربية بإذن الله.. ومجرد انعقادها يعنى أننا ندخل مرحلة جديدة، تتطلب واجبات صعبة جديدة.

مع سقوط الحجب والأضاليل استعاد الكل الوعى والذاكرة، ولم يعد بوسع أى من حكامنا أن ينكر أننا أمام عدو يستهدف النيل من ديننا وعرضنا، ومن يفعل فإنه يفقد مشروعية بقائه حاكما ومسئولا.

بعد مسيرة طويلة من المناورات والاتصالات السرية والعلنية ثبت أن من سعوا فى هذه الاتصالات كانوا يسعون خلف سراب، فلا قدس ولا سلام ولا دولة فلسطينية كسيحة ولا انسحاب من أى شبر محتل.. وليت الصهاينة يتوقفون عند ذلك، فكما يفرضون علينا قبول ما سبق، فإنهم سيفرضون علينا كذلك أن نقبل شاكرين مسرورين سيطرتهم السياسية والاقتصادية على مقدراتنا، وإذا رفضنا أو ترددنا هددونا بالحرب والصواريخ، ولن يعتقوا منا أحدا.

لكل من نسى أو «استعبط» فى فترة ماضية صار غدر الصهاينة الآن سافرا، وأصبح استكبارهم العنصرى والدموى معلنا، وكذلك أصبحت نيتهم فى ضربنا وقتلنا حديثا صريحا على ألسنتهم، فهل نملك إلا أن نستعد للدفاع؟

«كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون».. صدق الله العظيم.

مطالبنا من مؤتمر القمة

ولا يعنى ما قدمت بطبيعة الحال أننا نطلب من القمة قرارا بإعلان الحرب، ولكن نعنى أن على القمة أن تتصرف على أساس أن المرحلة الجديدة القادمة تحمل نذر

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٩٩٦/٦/٢١.

العدوان العسكرى الوشيك علينا، ويجب أن نتأهب بالتالى لملاقاة هذا الخطر.. وبداية التأهب والتحضير السياسى للمرحلة الجديدة مثلها بالفعل اجتماع قمة الغد.

ونحن نطلب أن تكون هذه القمة الموسعة امتدادا لما انتهت إليه قمة دمشق الثلاثية (مصر-سوريا-السعودية) ونعيد فى هذا الإطار تأكيد المبادىء التالية:

(١) دورية مؤتمرات القمة:

يقال: إن الدولة المصرية ستطلب إقرار ميثاق الشرف للتعاون والأمن القومى، وكذا إصدار وثيقة محكمة العدل العربية التى يستهدف أن تكون وسيلة دائمة لحل أى نزاع عربى بالسبل السلمية.. والحقيقة أن إعداد الميثاق ومشروع المحكمة قد انتهى منذ فترة طويلة وحان وقت الموافقة والتنفيذ، ولكن مع معرفتنا بنظم الحكم العربية، نقول إنه ما لم تتحول اجتماعات القمة عندنا إلى مؤسسة مستقرة لها مواعيد دورية ملزمة، فإن جدية التنفيذ لن تتحقق لأية اتفاقات توقع.. فالقرارات والالتزامات لا تحققها إلا حوارات صريحة ومتابعة منتظمة عند مستوى الملوك والرؤساء.

وإذا كانت دورية القمة واجبة، فإن مشاركة الدول العربية جميعا فى لقاءاتها (دون استبعاد أى طرف) واجبة كذلك.

(٢) العودة إلى تدفئة العلاقات العربية:

نحن لا نطلب المستحيل هنا، فليس ممكنا ولا مطلوبا أن تحل سائر الخلافات والتناقضات، ولكن مطلوب قطعا من القمة العربية أن تعود بهذه الخلافات إلى حجمها الطبيعى، ومطلوب أن يتذكر حكامنا فى المرحلة الجديدة أن عوامل الفرقة والتنازع بين أبناء الأمة العربية الإسلامية أقل كثيرا من عوامل الوحدة والتكامل، وينعكس هذا المسعى للتضامن والتفاهم فى رفض صريح للحصار المفروض على العراق وليبيا والسودان.. وبالنسبة إلى موضوع السودان بالذات، أن لأهل الحكم فى مصر والسودان أن ينهوا التوتر غير المبرر وأن يكونوا فى ذلك قدوة لغيرهم.

(٣) تنسيق المواقف قبل الحلف الأمريكى-الإسرائيلى:

ويعنى هذا من ناحية.. نبذ المفاوضات والاتصالات المنفردة، ويعنى من ناحية أخرى إنهاء الهرولة لإقامة علاقات مع الكيان الصهيونى الذى يصر على الإذلال والاحتلال.

* * * * *

وعن مسألة الاتصالات المنفردة الغادرة وخبرتها، فإننى أسلم بأنها داء قديم عند حكامنا والعياذ بالله.. والسفر العظيم الذى قدمه الأستاذ هيكل عن «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» يكشف عينة معتبرة، وإن كان مؤكدا أن ما ظل خافيا هو الأهم والأخطر.

وإلى جانب ما كشفه هيكل فإن كتاب شيمون بيريز الأخير أذاع جانبا آخر عن الملك الحسن والملك حسين، إلا أن الرئيس السادات كان بالقطع صاحب الاتصالات الأخطر، وهو أول من وقع فى الفخ الصهيونى حتى أذنيه، وأول من وصل بالتالى إلى اتفاقات محددة من خلف ظهر الآخرين بزعم أنه يحقق بذلك نصرا مؤزرا (لمصر وليس لإسرائيل!).

وأنقل هنا عن كتاب هيكل رسالة الملك الحسن إلى الرئيس السادات فى يناير ١٩٧٦.. الرسالة سرية، وهى عن مقابلة سرية فى هذا الوقت المبكر للملك مع إسحق رابين -رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك- وكان مضمون الرسالة بدوره سريا عن باقى القادة العرب.

وقد جاءت الرسالة فى وقت أثبتت فيه الإدارة الأمريكية عجزها عن إلزام إسرائيل بأى شىء رغم كل ما كان السادات قد قدمه من تنازلات.. وقد ذكر رابين فى رسالته السرية للسادات أنه لا معنى لإدخال الولايات المتحدة فى المفاوضات «فهى لا تستطيع أن ترغم إسرائيل على شىء لا تقبله إسرائيل من تلقاء نفسها، مقتنعة به راغبة فيه».. وبالتالى لابد من حوار ثنائى مباشر تعهد رابين بالمحافظة

على سريته التامة، وهذه الاتصالات ستجعل إسرائيل أكثر جرأة فى تقديم مقترحات ملائمة، وبالتالى يمكن التطرق إلى كل ميادين السلام: السياسية والعسكرية والاقتصادية.

هذه الرسالة لم يظهر مفعولها المباشر على الفور، ولكنها بالقطع مثلت المنهج الذى أدى بعد عامين إلى رحلة القدس، ثم إلى كامب ديفيد (غدرا بالبلاد العربية الأخرى).

وقد تصيد رابين القيادة الفلسطينية، وأوقعها فى هذا الفخ نفسه، فبعد إغلاق السبل جميعا فى المفاوضات المنعقدة تحت رعاية الولايات المتحدة، قال رابين: إن الاتصالات السرية الثنائية (بعيدا عن الولايات المتحدة وعن العرب الآخرين) هى طريقهم للحصول على تنازلات من الصهاينة، فجرت على إثر ذلك مباحثات أوسلو (١٩٩٢) التى ثبت الآن أن اتفاقاتها لا تساوى شيئا وإن أسهمت إسهاما كبيرا فى مزيد من تفتيت الموقف العربى.. ألم يكن الحال ليختلف كثيرا لو ظلت جبهة فلسطين والأردن موحدة مع جبهة سوريا ولبنان؟

* * * * *

إذا كان طبيعيا أن نستفيد من خبرة التاريخ، فلابد من التعهد فى هذه القمة بمنع الغدر والخيانة من أى طرف عربى ضد أى طرف عربى أخر.. إن لم يكن هذا بسبب الأمانة والالتزام بعهد الله، فإنه على الأقل بسبب ما ثبت من أن طريق الغدر لم يحقق -عمليا- إلا الكوارث على الجميع، حتى بالنسبة إلى من تصور أنه سيحصل على جائزة.

(٤) دعم المحور المقاتل فى سوريا ولبنان وفلسطين:

هذا فى تقديرى أهم ما ينبغى التركيز عليه.. هذا المحور (بصواريخه وبأسلحته الاستشهادية) هو الذى يعد موازين القوى الآن لصالح العرب والمسلمين، وهو

الذى يصيب الحلف الأمريكى-الإسرائيلى بالفزع والارتباك، وهو الذى أدى إلى الانقلاب الذى رأيناه فى حكم إسرائيل.

إن الأسابيع القليلة المقبلة تنذر بإشعال الفتن داخل لبنان، وتنذر بالنيل من العلاقات السورية-اللبنانية الوثيقة.. ونتنياهو لن يبرر صعوده إلى السلطة إلا بتوجيه ضربات عسكرية ضد لبنان وسوريا معا، يتفوق فيها على وحشية بيريز ودمويته.. وانتقال الطائرات والأساطيل الإسرائيلية إلى تركيا، مع احتشاد الجيش التركى على الحدود السورية، هى نذر يجب أن تؤخذ بجدية كاملة ولا ينبغى أن ينظر إليها على أنها مجرد «تهويش» وحرب أعصاب.. والمهمة الأولى للقمة العربية أن تتصدى لهذا العدوان المتوقع الخطير.

* * * * *

إننا نسأل الله أن يوفق حكام العرب فى اجتماع الغد، ونسأله أن يثبت القلوب على طاعته فلا تفزع ولا تهن.. ونحن نعلم ما آل إليه حال حكامنا بعد كل ما جرى، ولذا فإننا لا نطلب منهم إلا ما هو فى وسعهم.. وحسبنا أن يُعلوا كلمة الحق فيما يصدر من قرارات أو توصيات، فيدينوا ما ينبغى أن يدان ويؤيدوا ما يجب أن يساندوه.. ولسنا ممن يقللون من قيمة الكلام، فمسيرة الحق فى المرحلة الجديدة تبدأ بكلمة الحق التى تصوب ضد العدو، والتى توحد الأمة العربية الإسلامية على طريق الصبر والجهاد.

نسأل الله أن يوفق حكام العرب.. وأرجو أن يعبر شعبنا فى مصر عن دعمه لوحدة كلمتهم، ولذا فإننى أرجو أن تكون خطب الجمعة اليوم فى كل المساجد شرحا لمكر الأعداء ولضرورة التصدى لهم، وكذا أرجو أن تقدم المواعظ فى الكنائس فى هذا الاتجاه.. وأرجو أن يكون القنوت اليوم، بل فى كل صلواتنا، شاملا الدعوة على الأعداء وشاملا الدعوة لكل منا، ولمجموع الأمة ولحكامها: اسألوا الله الثبات واسألوا الله نصره.

ولكن آفاق الأمة أوسع من قدرات القمة

إلا أن تطلعات أمتنا العربية-الإسلامية لا تتحدد بطبيعة الحال بإمكانات قمة الغد.. إن آمالنا أوسع من هذا وأرحب، وما نرجوه من حكام العرب لا يتجاوز فى الحقيقة وقف التراجع الذى بدا لدى كثير منهم.. ونرجوهم كذلك ألا يقفوا فى المرحلة الجديدة فى وجه نور الله الزاحف فى منطقتنا وفى العالم.. وعليهم أن يتيقنوا أن مكر الله أعلى من مكر الحلف الأمريكى - الصهيونى.. ورغم ضراوة المواجهة فإن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

إننى أتوقف فى هذا المقال عند بعض ما يجرى فى تركيا وإيران من أجل العظة والاستبشار.

صحوة الإسلام فى تركيا

وبالنسبة إلى تركيا ينبغى أن نذكر أن الحلف التركى -الإسرائيلى -الأمريكى ليس شيئا جديدا. فهناك مخطط قديم لتوريط تركيا فى تحركات معادية، والصهاينة الذين لعبوا دورا مشهودا فى تقويض الدولة الإسلامية فى تركيا هم الذين يسعون الآن إلى استكمال المهمة، وخصوصا منذ انهيار الاتحاد السوفيتى، فهم يحرضون النخبة التركية الحاكمة على التوسع وتجميع الشعوب ذات الأصول العرقية التركية.

إن البروفيسور برنارد ليويس من أبرز المفكرين الصهاينة الذين عملوا مع المخابرات البريطانية ثم انتقل إلى جامعة برينستون فى الولايات المتحدة.. ليويس هذا كان يقول (يناير ١٩٩٦) أمام مؤتمر لرجال البنوك فى أنقره: إن هناك فراغا فى المنطقة ويجب على تركيا أن تملأ هذا الفراغ.. وفى مارس من هذا العام كان ليويس يتحدث مرة أخرى ويحرض العسكرية التركية لكى تلعب دورا توسعيا، وذلك فى مؤتمر عقده فى واشنطن مجلس التعاون الأمريكى-التركى.. وفى هذا المؤتمر نفسه كان آلان ماكوفسكى يقول: إن على تركيا أن تخرج من عزلتها

وتوسع أفاقهـا بعد اختفاء الاتحاد السـوفيتي، وأضاف: إن على تركيـا أن تتحالف مع إسرائيل والأردن في حـصار سوريا وضـربها، ويجب كذلـك أن تضع خططها الخاصة للـهيمنة على البلقان وآسـيا الوسطى.. وماكوفـسكى بالمناسبة صهـيونى عمل في الخـارجية الأمريكيـة ثم أصبح الآن مسئـولا في منظمة AIPAC، وهى أشهر المؤسسات الصهيونية الرسمية في الولايات المتحدة.

ومفهوم طبعا أن الحلف الأمريكي-الصهيوني لا يضمر أي خير للشعب التركي، وهو بالقطع لا يستهدف أي دعم للدور الجيوسياسي لتركيا وجيشها، ولكن الهدف الحقـيقي هو أن تدفع تركـيا دمـاءها ومواردها الاقتـصادية في حـروب وعداوات تخدم المخططات المعادية لها.. فالطريقـة المرسومة لأهل تركيا لا تحقق إلا توترا في عـلاقاتهم مع روسـيـا، بل مع الصين أيضـا (إذ مطلوب أن يحـرض الأتراك على انفصال مقاطعة سينكيانج، أي تركستان الشرقية، عن دولة الصين باعتبار أن غالبية سكانها كـانت من أصول تركية.. والنخـبة التركيـة الحاكمة تشارك فـعلا في هذه الجهود).

إن هذا الدور لن يحقق طـبعا الكتلة التـركية المزعـومة، ولكنه مجـرد استنزاف قدرات الشـعب التركي المسلم في خـدمة المخططات الأمريكيـة-الصهيـونية لإثارة المتاعب في روسيا والصين.

وبالنسبة إلى المنطقة العربية، فإن استـخدام القوة التركية لن يصب هنا أيضا إلا في دعم المخططات الأمريكية-الصهيونيـة للسيطرة على المنطقة، وإذا جاءت مرحلة قطف الثمار لن تعطى تركيا أي نصيـب يذكر.. فإسرائيل ترفض أي مزاحم إقليمي في النهب والقيادة.

إن مـخطط استـخدام تركـيا هو مـخطط واضح، وآثاره في التطبـيق أصبـحت مكشـوفة، وبفـضل ذلك فـإن التوتر يـحيط بهـا الآن من كل جـانب. من روسيـا والصين إلى اليونان والبلقان، ومع استبعـادها من الجماعة الأوربية فإنها تخاصم العرب أيضا وتتحرش بسوريا.

إلا أن كل هذا لا يدوم بإذن الله.. ففى مواجهة هذا المخطط الفاشل والقائم على العصبية التركية الجاهلية، نرى كيف أن الصحوة الإسلامية حركت الشعب التركى فى الاتجاه الصحيح، وحتى النخبة العلمانية من السياسيين والعسكريين نراها تفيق من غيبوبتها، وتتصالح مع تاريخها وتفهم الوطنية التركية على نحو يخالف ما جرى تدبيره.

إن حزب الرفاه سيتولى الحكم هناك بإذن الله (إن لم يكن اليوم ففى الغد القريب).. وساعتها ستتغير الاتجاهات والتحالفات الحالية خطوة خطوة.. وحتى فى ظل الأوضاع القائمة الآن فإن المصالح الوطنية التركية دفعت إلى تعاون متزايد بين تركيا وإيران الإسلامية، وعلى عكس ما كان مقدرا.. إلا أن عمق التحول الإسلامى فى تركيا لا ينعكس فى حزب الرفاه وحده فهو يغزو عديدا من التجمعات السياسية، ومع ذلك فإن الأمر أعمق أيضا وأشمل من النشاط السياسى، فالمجتمع المدنى كله يتحول، ومؤسسات البر والخير من كل نوع تتكاثر، وفى ظل ذلك فإن الأخوة الحقيقية مع الشعوب العربية والإسلامية أصبحت مانعا أو عائقا لأية فتن يدبرها اليهود.

وينقلنا هذا إلى جمهورية ايران الإسلامية

إن الأعداء يغيظهم قيام هذه القلعة الإسلامية القوية بشعبها وجيشها وبقدراتها الاقتصادية وبمزاياها الجيوسياسية.. وبقدر غيظ الأعداء ينبغى أن يكون فرح المؤمنين واستبشارهم.. بل إن فرحنا ينبغى أن يكون أشد.

والحقيقة أننا يجب أن نتابع التطورات الشاملة التى تجرى فى إيران والتى يجرى التعتيم عليها، وأكتفى هنا بالإشارة إلى بعض أوجه القوة الجيوسياسية المتنامية لإيران.

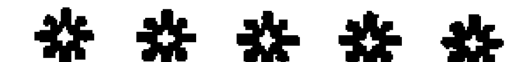
فموقع إيران فى السوق الدولية للنفط معروف، فهى تملك ١٠٪ من الاحتياطى الدولى، وهى الدولة الثانية فى الأوبك بعد السعودية من حيث الإنتاج، وهى تملك

كذلك ١٥٪ من الغاز الطبيعى فى العالم، وتأتى الثانية فى إنتاجه بعد روسيا وإن كانت احتياطياتها أعلى من روسيا كثيرا.

إلا أن أهمية إيران الاستراتيجية فى السوق العالمية للطاقة تتجاوز الآن احتياطياتها وإنتاجها من النفط والغاز، فمع انهيار الاتحاد السوفيتى اجتذبت منطقة بحر قزوين الغنية بالنفط والغاز شركات النفط والغاز الكبرى فى العالم، وإيران تملك أفضل الطرق لمد أنابيب النفط والغاز من دول هذه المنطقة إلى أوربا والشرق الأوسط.

وأود أن أذكر هنا حدثا تاريخيا أهمله إعلامنا الرسمى، ففى الشهر الماضى اجتمع فى إيران ١٢ رئيس دولة، وجاءت وفود من ٤٠ دولة للمشاركة فى افتتاح خط السكة الحديد من مشهد فى إيران إلى تيجين فى تركمانستان، وهذا اللقاء الدولى الحاشد يجسد الأهمية الكبرى لهذا المشروع الذى يعطى إيران اتصالا مباشرا مع كل آسيا الوسطى وما بعدها، وهو بالتالى يعطى الجمهوريات الناشئة هناك منفذا لبضائعها إلى ميناء بندر عباس الإيرانى، ومن ثم إلى دول الخليج العربى والأسواق العالمية الأخرى، وهذا الخط من مشهد إلى تيجين يعتبر حلقة حاكمة فى شبكة الطرق الحديثة والسكك الحديدية التى تربط الصين بريا مع أوربا عبر آسيا الوسطى.. وهذه الشبكة ستنضم إليها الهند وباكستان.. إنها ثورة بالمعنى الحرفى فى تقدم الاقتصاد العالمى تلعب إيران الإسلامية فيها دورا قائدا.

ويذكر أن اليوم الذى شهد الاحتفال الدولى بافتتاح الخط الحديدى قد تزامن مع قمة منظمة التعاون الاقتصادى (إيكو) التى تضم إيران وتركيا (وقد مثلها ديميريل رئيس الجمهورية) وباكستان وأفغانستان وأذربيجان وخمسا من جمهوريات آسيا الوسطى.



و.. مع كل هذه التطورات للقوة الإيرانية، من الطبيعى أن تنتشر الصحوة الإسلامية، ومن الطبيعى أن تزداد صلابة إيران فى المواجهة مع الحلف الأمريكى-الصهيونى.. ألم نذكركم بأن الله متم نوره؟!

الإسلام قائد المعركة العربية ضد الحلف الأمريكى-الصهيونى

إن المنطقة العربية هى قلب الأمة الإسلامية، وهى ساحة الصدام الرئيسى مع الحلف الأمريكى-الصهيونى.. بل إن كل قوى الاستكبار الدولى أقامت إسرائيل ودعمتها لكى تنال من وحدة هذا القلب للأمة الإسلامية.. والصهيونية تدرك عن يقين أن صحوة الإسلام الحالية هى الخطر الأكبر على مستقبلها، ولذا فإنها تقود التحالف الدولى ضده فى كل العالم، وفى منطقتنا على وجه الخصوص.. وكتلة الليكود التى تحكم إسرائيل الآن مع حلفائها هى كتلة اليهود الأشد عداوة للذين آمنوا..

ولهم حق! فأصحاب الإسلام هم الذين لا يمكن أن يفرطوا فى القدس، ولا فى الأرض الفلسطينية المباركة حولها.. إن الإسلاميين لا يتكلمون عن القدس على استحياء، ولا يذكرونها باعتبارها مجرد أرض محتلة.. فنحن على استعداد لأن نستشهد جميعا ولا نتنازل عن الأرض المقدسة.

الصهاينة لهم حق فى عداوتهم للإسلاميين وفى فزعهم منهم.. وكيف لا يفزعون وقد خبروا جند الله الاستشهاديين الذين تحدوا كل قلاعهم وترسانات أسلحتهم؟

الصهاينة لهم حق، ولكن ما لا يمكن فهمه هو موقف هؤلاء الذين يفترض أنهم منا، ومع ذلك قرأت لبعضهم عن خطر الدعوة لحكم الإسلام باعتبارها تفرق الأمة وتشيع العقائد التى من شأنها إجهاض التنمية والتقدم الاقتصادى!

لقد كتب هـؤلاء هذا الكلام وكأنهم يطلبون فى مناسبـة اجتماع القـمة ضرورة تشديد المطاردة للإسلاميين.. وقد كتب بعضهم كذلك محذرا من خطر إيران وتركيا وقال: إن خطرهما على أمة العرب لا يقل عن خطر أمريكا وإسرائيل إن لم يزد!!

إذا كانت كل هذه السفاهة عن حسن نية فنسأل الله أن يهديهم!

ولكننا نقول لحكام العـرب: إياكم واستمـرار هذه الحرب العجيبـة المجنونة على دعاة الإسلام على نحو ما يدعوكم هؤلاء السفـهاء.. وإياكم أن تعاملوا شعب تركيا المسلم باعتـباره مثل الصهـاينة.. أما جمهـورية إيران الإسلامية فمـن الجريمة أن تتواطؤا مع الأعداء على ضربها أو عقابها.

وهذا النصح المخلص نوجهه بشكل خاص إلى أهل الحكم فى مصر.

إن المطلوب من مصـر كثير، وهى لن تقـوم بمهامها إلا إذا كـانت قوية، وهى لن تكتسب قوتهـا إلا بوحدة شعبها، وهذه الوحدة لا تقـوم إلا على العدل والشورى.. وباسم هذا العـدل وهذه الشورى، نطالب بفـتح الفرص أمـام القوى الوطنيـة لكى تلعب دورها فى رسم السياسات وتنفيذها.. ويشمل ذلك كثيرا من الإجراءات يأتى على رأســها إيقـاف المحاكـمات العـسكرية، وكذلك لابد من الإفـراج عمـن صدرت ضدهم أحكام بسبب انتمائهم للإخوان المسلمين.

نعلم يا أهل الحكم أن لديكم خلافات وهواجس حقيقـية مع كل القوى الإسلامية (وضمنها حزب العمل) ولكن حل هذا يكون بالحوار وليس بالسجون والإرهاب.

و.. نسأل الله أن يفتح بيننا وبين كل المخلصين بالحق.

* * * * *

■ ٢ ■

معجزات الثورة الإسلامية في إيران.. وإنجازاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية

■ التراضى التاريخى بين الإسلاميين والعلمانيين فى تركيا درس لنا جميعا فى مصر

■ الخلافات مع السودان لن تحلها من الجذور اجتماعات فنية لخبراء الأمن

■ ملاحظات جوهرية حتى لاتتكرر الأزمة

نعرف أن المواجهة مع الحلف الأمريكي-الصهيوني مواجهة ضارية دموية ممتدة، وفي هذه المواجهة حقق العدو خلال السنوات الأخيرة بعض الانتصارات، ولكننا في المقابل حققنا انتصارات عليه أكبر، وأصبح التوازن بيننا وبينه يتحسن لصالحنا سنة بعد سنة.. لقد بلغ التحسن في حال أمتنا مرحلة عالية جسدتها القمة العربية.. وبعد القمة جاء نصر الله الأكبر حين أعيد فتح «القسطنطينية»!.. أي حين أصبح حزب الرفاه الإسلامي على رأس الحكومة في تركيا.

نحن ندرك أن القمة ونتائجها كانت قلقة، فعقدها لم يكن سهلا بسبب الضغوط الأمريكية، والبعض لم يحضر هذه القمة إلا محرجاً.

نعم، نحن ندرك أن ما تحقق في القمة العربية مازال هشا، وحركة الأعداء لتحطيم ما أنجزناه لم ولن تتوقف.. فقد تابعنا مثلا حكاية صواريخ سكود المصرية، والتهديد بتوقيع عقوبات على بلدنا، وهذه الحملة كانت ردا على التحرك السياسي المصري الذي أدى إلى انعقاد القمة وإلى قراراتها..

وقد تابعنا أيضاً زيارة وزير الخارجية الأمريكي إلى إسرائيل والتي أيد فيها كل ما تعلنه الحكومة الإسرائيلية الجديدة تحدياً، ثم رأينا كذلك كيف دبروا فتح خط الطيران الإسرائيلي مع الأردن بعد القمة مباشرة، وكذا زيارة بعض الوفود العربية إسرائيل من أجل توثيق العلاقات.. والغرض الواضح إظهار أن قرارات القمة مجرد كلام.

ولكن في مقابل هذا الهجوم، كانت جبهتنا تصد أصحاب الفتنة، وتتحرك تحركاً مضاداً، فالمواجهة المسلحة مع أعدائنا تصاعدت على يد شبابنا الفدائي الاستشهادي.. وفي موضوع صواريخ سكود علمنا باعتزاز شديد كيف أن الرئيس

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٩٩٦/٧/٥.

مبارك رفض مناقشة الموضوع مع كريستوفر، وبلغ غضب الرئيس حد الامتناع عن حضور المؤتمر الصحفى معه.

وقد قرأنا بعد القمة أن الاتصالات مستمرة بين الأردن وسوريا وأنها قد تتوج بقمة ثنائية قريبة.. وقرأنا أن الطريق البرى بين سوريا والعراق قد فتح لأول مرة منذ ١٩٨٠ لكى تعبره بعثة حكومية سورية تذهب إلى بغداد للتباحث والتنسيق.. وقرأنا عن وساطة سورية بين البحرين وإيران من أجل المصالحة.. وقد تابعنا كذلك تواصل الجهود لحل الخلافات بين مصر والسودان، وهناك جهود لعقد لقاء بين دول «إعلان دمشق»، وكذلك تابعنا زيارة الرئيس مبارك للتشاور مع فرنسا ومع دول الجماعة الأوربية بعد قمة القاهرة وقمة الدول السبع الكبرى فى ليون (بحضور الولايات المتحدة).

* * * * *

الحركة إذن من الجانبين لم تهدأ.. إلا أننا فى استكشاف الاحتمالات لتقدمنا، نتوقف فى هذا المقال بشكل خاص عند: السودان وإيران وتركيا.

حتى لايعود الشقاق مع جمهورية السودان الإسلامية

من المفترض أن تكون اللجان المكلفة ببحث أوجه الخلاف قد بدأت أعمالها، ومع النوايا الصادقة من الجانبين أظن أن كل المسائل قابلة للتسوية بإذن الله.. ولكن إلى جانب هذه المباحثات والاتصالات لابد من بعض الملاحظات:

(١) فأولا ينبغى أن يستنتج شعبنا من هذا الذى يجرى الآن أن الخلافات بين الدولتين لم تكن قط بالاتساع الذى بدا فى إعلامنا الرسمى، وفى أغلب صحف المعارضة.. ولولا هذا لما كانت المصالحة باليسر الذى يبدو حاليا.. ويذكر شعبنا من غير شك أن حزب العمل كان دائما يؤكد هذا المفهوم، كنا ننبه إلى أن هناك من ينفخ فى الخلافات بحيث يصل بها إلى نقطة اللاعودة.

(٢) وهذا الموقف السياسى الخاطىء من حقيقة الخلافات المصرية والسودانية كان عمليا (وبحسن نية من الغالبية) يساعد المخطط الأمريكى-الصهيونى، الذى يضرب مصر قبل أن يضرب السودان.. كنا وحدنا نؤكد هذه البدهية ونكررها، ونحمد الله أن الكل الآن أصبح يقول مثلما نقول.

(٣) ولكن مادام مطلوبا ترسيخ أسس العلاقة الإستراتيجية بين مصر والسودان حتى لاتتعرض للهزات مرة أخرى، فإن هذا الهدف العزيز لاتحققه بالقطع مجرد اجتماعات بين الفنيين فى شئون الأمن، فالأمر أكبر من ذلك وأخطر.

(٤) لابد من التذكير بأن خط العلاقات بين البلدين فى النازل منذ استقل السودان عام ١٩٥٦.. وبعد مرحلة من التعاون المتقطع والقلق فى عهد النميرى، عاد التوتر والتدهور بعد سقوطه (١٩٨٥)، وبخاصة بعد الانتخابات وتولى حكومة الصادق المهدى، ثم تفاقم الأمر منذ قامت ثورة الإنقاذ (يونيو ١٩٨٩).. أى استمر التدهور وتزايد طوال ١١ سنة متصلة، وغير صحيح أنه نشأ مع الثورة الإسلامية و«إرهابها».. وحين أقول: إن العلاقات فى النازل منذ الاستقلال فإننى لا أشير إلى العلاقات السياسية بين الحكومات وحسب، ولكن أقصد مجمل العلاقات الاقتصادية والثقافية والتعليمية، بل والعلاقات الاجتماعية والإنسانية.. فعدد من لهم صداقات حميمة مع أهل النخبة السودانية أصبح محدوداً جداً فى مصر!

إذن نحن أمام ظاهرة متصلة تعكس خللا خطيرا فى تصوراتنا الإستراتيجية، فأى تخطيط إستراتيجى صحيح لدور مصر وعلاقاتها فى المنطقة، لابد أن يضع العلاقات المصرية-السودانية متقدمة على كل ما عداها، ولو كنا نتحرك وفق هذا المفهوم لكان مجمل العلاقات ولكان مسارها منذ عام ١٩٥٦ مخالفاً تماماً لما قدمنا.

(٥) وإذا كان لنا أن نفتح صفحة جديدة فإن هذا يتطلب علاج ما ترسب خلال الفترات الماضية وخلق «حساسيات».. أول ما أذكره هنا هو الحرص الضرورى من جانب مصر (من جانب مثقفيها وسياسييها) على احترام الاستقلال السودانى، وعلى التعاون والتكامل على أساس الندية.. والمبالغة فى إظهار هذا الحرص تنفع قطعا ولاتضر.

(٦) وقد لايلحظ البعض أن السياسة المصرية فيها ما يخدش مبدأ الندية، ولكن تكمن المصيبة فى حكاية أنه «لايلحظ» هذه.. لا أريد الآن تقليب المواجع، ولكن ألم يحدث فى سنوات الأزمة الأخيرة -على سبيل المثال- أن هجومنا الحاد على تصدير حكومة السودان الإرهاب إلى مصر لم يصاحبه قط تنبه إلى أن مركز «الإرهابيين» الذى يخططون لنسف السودان كله قائم فى القاهرة.. هذا «الازدواج» فى المعايير يعكس فى جانب منه -عند السودانيين- أن مصر تحل لنفسها ما تهاجم الآخرين من أجله.. وهم بالتالى يسألون: أين الندية والأمن المتبادل؟

(٧) بل إننى أذهب فى مراعاة الندية إلى أبعد من ذلك، فأنا أريدها ندية من الأعماق، وليس فى الظاهر فقط أو على سبيل النفاق، ويتطلب ذلك بعض التواضع منا، لكى ندرك أن لدى الدولة السودانية ما يمكن أن نتعلمه.. من المؤكد أننا نتفوق على السودان كثيراً من الناحية الاقتصادية وفى المعارف العلمية والتكنولوجية، وكذلك فى فنون الإدارة الحكومية.. إلخ، ولكن من الناحية السياسية أظن أن هناك الكثير الذى يمكن أن نتعلمه من السودان.

* * * * *

منذ علت الصيحة فى منطقتنا العربية لإجراء تغييرات سياسية واجتماعية جذرية، انقسم أصحاب الدعوة إلى التغيير إلى اتجاه يتأثر بالشيوعية، واتجاه مضاد يعتمد الإسلام أساساً للتغيير المنشود.. وفى هذا الانقسام كان الحزب

الشيوعى فى السودان (أيام ذروة المد الماركسى فى العالم وفى المنطقة) هو أهم الأحزاب الشيوعية العربية والأفريقية من حيث التنظيم والقوة الجماهيرية، وكان الرائد فى التطوير النظرى المستقل للماركسية.. وفى الوقت نفسه كانت الحركة الإسلامية فى السودان بدورها رائدة فى الاجتهاد، وكان تأثيرها مميزاً وبارزاً بين مجمل الحركات الإسلامية المعاصرة.

هكذا شاء الله وقدر.. فكان هذا السودان المتخلف من الناحية الاقتصادية جياشا بالحيوية الفكرية والسياسية!



(٨) وينقلنا هذا إلى الوضع الحالى فى السودان، فقد شاء الله أن يصل دعاة الإسلام هناك إلى الحكم، بفضل تحالف وثيق بين المدنيين والعسكريين، فتحقق بفضل ذلك استقرار وتقدم تنموى مستقل رغم الحصار والحروب والمؤامرات.. وهذا الفتح الربانى العظيم كان طبيعيا أن يثير الرعب فى قلوب الحلف الأمريكى- الإنجليزى- الصهيونى، ولكن لايعقل أن يكون هذا التطور مثيرا للفزع عند الحكومة المصرية أيضا.

مطلوب أن ندرس بصدق ما حققه الحكم الإسلامى فى السودان، ولو فعلنا لرأينا أن منهجهم فيه الكثير الذى ينفعنا.. أعلم أن البعض يرفض بعنجهية هذا الذى أقول، أو لايصدقه، ولكن هذا من أثر التجاهل والتحامل الذى ساد فى السنوات الماضية، والذى منعنا من المتابعة الأمينة لما يجرى فى السودان ومن دراسته.. إن الجهل وصل بالبعض إلى الكلام عن الأستاذ الكبير حسن الترابى باعتباره زعيم عصابة ، ولو قرأوا وأنصفوا لعلموا أنه من كبار الفقهاء والعلماء فى عصرنا، إضافة إلى أنه صاحب الخبرة الطويلة فى أمور السياسة وبناء مؤسسات المجتمع والدولة.. ولكن، ماذا تقول فى الجهل؟!

* * * * *

إن التفاعل الإيجابى مع التجربة الإسلامية فى السودان على نحو يؤدى إلى تشكيل محور متين يربط شمال الوادى بجنوبه، سيدفع التنمية الشاملة -فى مصر والسودان معا- بقوة لم يشهدها العالم، وسيغير هذا الموقف جذريا فى كل أفريقيا، بل سيؤدى إلى تغيير كبير فى كل المنطقة العربية والإسلامية.

الجمهورية الإسلامية فى إيران هذه القوة الحليفة الجبارة

إذا ظلت دول مجلس التعاون الخليجى على علاقة متوترة مع كل من إيران والعراق فهذا مجرد خدمة للحلف الأمريكى-الصهيونى.. إذا ظلت هذه الدول على خوف من العراق وإيران، فهذه ثغرة تنفذ منها قوات الحلف المعادى لكى تستقر فى دول مجلس التعاون بزعم حمايتها.. ولكى تخرج قوات الاحتلال هذه من مرابضها الحالية فإن جهوداً مكثفة ينبغى أن تبذل من كل الأطراف.

وتبدأ الجهود بأن يتذكر الجميع أن وجود إيران والعراق فى الخليج هو حقيقة جغرافية ثابتة لايمكن تغييرها، وبالتالى لابد أن يتوصل أهل الخليج جميعا، رغم أية خلافات ومنافسات، إلى صيغة تضمن لهم الاستقرار والأمن حتى ينتفى زعم أى طرف بأنه يحتاج إلى قوات أجنبية يعلم أنها معادية للعرب والمسلمين.. ولاشك فى أن الدولتين الكبريين فى هذا الخليج عليهما مسئولية أولى فى الوصول إلى هذا الاتفاق.

إذا أردنا أن نستفيد من خبرة الماضى، فإن إيران الآن، وبالذات، مطالبة باتخاذ مبادرات ملائمة، ومن ناحية أخرى.. فإن دول مجلس التعاون مطالبة بمقاومة الاحتلال الأجنبى، وبرفض أن تستخدم ذريعة للعدوان على الجمهورية الإسلامية فى إيران أو تهديدها.

نعم لابد من جهد حقيقى مشترك لإزالة التوتر فى الخليج، حتى تنطلق طاقات الجمهورية الإسلامية فى المواجهة مع المحور الأمريكى الصهيونى.

* * * * *

وأود أن أنقل هنا بعض المعلومات الأساسية عن هذه الدولة العريقة التى لاينشر عنها إلا أنها «معقل الإرهاب».. إرهاب من يا أعداء الله؟!

إن فتياننا وشبابنا حتى سن العشرين لم يكونوا فى سن الإدراك حين قامت الثورة الإسلامية بقيادة آية الله الخومينى (١٩٧٩).. هذه الثورة كانت معجزة فى أسلوبها حيث لم يحدث لشعب من الشعوب أن شارك فى ثورة بمثل هذا الإجماع بحيث ذاب جيش الشاه الجبار فى محيط الشعب، لتقام سلطة العلماء المجاهدين.. وهذه هى المعجزة الثانية إذ قامت على يد هذا الشعب أول سلطة إسلامية بعد سقوط الخلافة العثمانية (١٩٢٤)، وبعد أن استيأس الناس من إمكان إعادة بنائها.. وكانت المعجزة الثالثة أن هذه الثورة قامت فى إيران التى ظن الناس أنها آخر بلد يمكن أن تقوم فيه ثورة إسلامية راديكالية، فحكم الشاه لم يكن الأكثر ظلما، والمال النفطى الوفير كان يخفى كثيرا من عاهات المجتمع وينشر الاسترخاء.

وصحيح أن إيران تتبنى المذهب الشيعى، ولكن هذا لايبرر قطعا نفور العالم السنى منها، وهو لاينقص بأى حال من قدر الثورة الإيرانية ودورها الرائد فى إنهاض الأمة الإسلامية.. من المؤكد أن عصور الركود والانحطاط حولت أصحاب المذاهب إلى طوائف متعصبة ومنغلقة، ولكن فى إطار الصحوة المعاصرة يتجه العلماء الثقات إلى التقريب بين هذه المذاهب، وإلى تركيز الضوء على الأصول التى تجمع بدلا من التركيز على خلافات الفروع.. وهذا ما يدعو إليه علماء الإسلام الذين يحكمون إيران الآن، ومعروف أن الأزهر عندنا يعتمد المذهب الجعفرى (الذى يسود بين شيعة إيران) ضمن المذاهب التى يرجع إليها مع أبو حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل رضى الله عنهم.

المهم، هذه الثورة أقامت أول دولة إسلامية بعد انهيار الخلافة العثمانية، ولا أريد أن أستطرد هنا فى شرح نظامها السياسى، ولكن يكفى أن أقول: إنه وليد اجتهاد جديد استفاد من كل المنجزات المعاصرة فى انتخابات لرئيس الجمهورية والبرلمان، ولكن أحاط كل هذا بضوابط الشرع وأحكامه.

إن الانتخـابات هناك لاتدخلها شبهـة تزوير وعدد المشاركين فيـها أعلى من أية نسبة مـقابلة فى العالم.. والدستـور الإسلامى أقام تعدداً فى مـراكز السلطة على نحو يمنع الاستـبداد.. وكل الدارسين الغربيين للتجربة الإيـرانية يسلمون بكل هذا الذى ذكرت.

أذكر أن إريك رولو (الباحث والكاتب والدبلومـاسى الفرنسى المرموق) حدثنى مبهـوراً منذ أشهر عـما شاهده من حريات للتـعبير الفكرى والسـياسى فى إيران، وقال: هذا حـال يشبـه ما عندنا فى فـرنسا ولامـثيل له فى أى بلد آخـر عربى أو إسـلامى.. وفى زيـارتى الأخـيـرة لإنجلتـرا قـابلت سـامى زبيـده (وهو عـالم سوسيولوجى كبير من أصل عراقى)، وسـامى معاد تماما للثورة الإسلامية، ولكنه اعـترف بأن الحـريات فى إيران تتسع بشـكل ملحوظ، وأن كـثيـرا من أصدقـائه الإيرانيين المخالفين للثورة والذين كانوا ممنوعين من دخول بلدهم، أصبح بوسعهم الآن أن يعودوا دون قيود، وحين سألته: هل حدث هذا باعتباره تراجعاً من الثورة؟ أى هل تحـقق هذا عن ضـعف؟! كـان الرد المبـاشـر وبدون تردد أنه يرى أن هذه السعة فى احتمال الخصوم تأتى من القوة والاستقرار.

* * * * *

و.. بين كل الدراسين هنـاك إجمـاع على أن طـابع التـدين الذى يلبس كل قـادة الدولة ومؤسساتها، جعل الفساد ظاهرة هامشية، وجعله عند القمة منعدما.

* * * * *

وإذا انتقلنا إلى الاقتـصاد والتنمية الاقتـصادية، فإن الثورة الإسلامـية واجهت منذ يومها الأول حـصار الأعداء لها، ثم جاءت الحـرب العراقية-الإيرانيـة بخرابها الرهيب، وحين شرعوا فى الإعمار كـانت الثورة مواجهة بالمخطط الدولى الذى أدى إلى هبوط أسعار البترول وإلى إصابة الموارد الإيرانية بالتالى فى الصميم.

وسط هذه الظروف تغيرت أساليب الإدارة الاقتصادية.. وفى مرحلة الإعمار (بعد الحرب) جرى تحول متسارع لإطلاق الطاقات الفردية من خلال السوق التى تقودها الدولة.. وتجربة الخصخصة فى إيران وتجربة الموقف من رأس المال الأجنبى والمناطق الحرة، تمت من منظور وطنى بعيد عن أية شبهة للفساد، أو لتحقيق مصالح خاصة لهذه الفئة أو تلك.. إنها تجربة جديرة بالدراسة، وأرجو أن أتعرض لها فى مناسبة أخرى إن شاء الله.

ولكن أذكر هنا بعض المؤشرات الكمية.. ففى الخطة الخمسية الأولى (التى بدأت عام ١٩٨٩) أصيبت الموارد كما ذكرت بخفض أسعار البترول بدءا من عام ١٩٩١..

ورغم هذا كان معدّل النمو فى المتوسط خلال سنى الخطة ٨٪، وهذا المعدل يضع الاقتصاد الإيرانى بين أعلى خمس اقتصادات فى العالم من حيث معدل النمو فى الناتج القومى الإجمالى.

وقد تضمن هذا تحقيق أرقام قياسية فى إنتاج الغذاء وفى زيادة الصادرات غير البترولية إلى ٥ بلايين دولار.. وكذلك كانت البطالة ١٥٪ من قوة العمل فانخفضت إلى ١٠٪.

وقد تراكمت الديون على إيران (بسبب الانخفاض المفاجىء فى أسعار البترول)، ولكن القيادة الإسلامية الوطنية كانت حريصة على مواجهة المأزق حتى لايتهدد استقلالها الاقتصادى، فاتخذت إجراءات حاسمة منذ عام ١٩٩٤.. فدفعت جزءا من هذه الديون وقيدت الواردات لبناء احتياطى من بلايين الدولارات ثم خصصت الخطة الثانية نحو ٢٠-٢٥٪ من الدخل البترولى لتسديد ما بقى من ديون.

وأشير إلى زيادة الاعتماد على الإنتاج الصناعى المحلى، وعلى خبرة المهندسين الإيرانيين، وقد انعكس هذا بشكل خاص فى مجال المناجم والتعدين.

فهم يتوسعون الآن فى استغلال مواردهم الهائلة من الحديد والنحاس، ولهم تكنولوجيات مبتكرة فى تصنيع الصلب.. وستصبح إيران وفقاً لذلك أكبر مصدر لمنتجات الحديد والنحاس فى منطقة الشرق الأوسط.. إضافة إلى التطور الكبير فى البتروكيماويات.

وقد كتبت فى مقال سابق عن تعاظم الوزن الجيوسياسى لإيران من حيث ربطها جمهوريات وسط آسيا مع الخليج وأوربا، إضافة إلى توثيق الروابط مع باكستان والهند عبر أنابيب الغاز والسكك الحديدية، وإضافة إلى ربط الصين عبر أراضيها مع أوربا.. وكل هذا الكلام فيه تفاصيل كثيرة، لابد من دراستها.

ولكننى أتوقف عند حقيقة أن كل التطورات الاقتصادية والصناعية لاتستهدف مجرد رفع مستوى المعيشة، فلا ننسى أن كل ما فى إيران يخضع لأهداف الثورة الإسلامية، وعلى رأسها تحرير القدس، ويتطلب ذلك زيادة الإنفاق العسكرى وتطوير الصناعات العسكرية للدفاع عن الثورة وأهدافها.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ويدفعنا هذا إلى إلقاء نظرة خاطفة على القوة العسكرية الإيرانية الصاعدة (حسبما يرد فى المصادر الغربية المعتبرة).

وتتألف القوات المسلحة الإيرانية من الجيش النظامى، والحرس الثورى (الذى أصبح على مستوى رفيع من حيث العتاد والكفاءة القتالية)، ويخضع الاثنان لوزير مدنى، ومعروف أن خامينئى (مرشد الثورة) هو القائد الأعلى للقوات المسلحة بشقيها بحكم منصبه، ومعروف أيضا أنه كان فى كل المراحل مع رئيس الجمهورية الحالى (رافسنجانى) على صلة دائمة بأمور القوات المسلحة وقياداتها.

ومنذ انتهاء الحرب مع العراق، استفادت إيران من هوجة الانهيار السوفيتى فى شراء أحدث أنواع السلاح من ترسانته، إلى جانب ما تستورده من دول شرق أوربا (أعضاء حلف وارسو السابق) ومن الصين، من أحدث الطائرات إلى أحدث

الدبابات والعربات المدرعة، إضافة إلى كل أنواع الصواريخ (جو-جو /جو-أرض/ أرض-جوا أرض-أرض).. وهناك تركيز خاص على الطيران والدفاع الجوى مع كل ما يتطلبه هذا من تجهيزات إلكترونية، وطائرات للاستكشاف والإنذار المبكر.. إلخ.

وإلى جانب المشتريات، فإنه يجرى تحديث ما تملكه إيران من أسلحة أمريكية، وتستخدم فى ذلك إمكانات دول متفرقة من البرازيل إلى الهند وباكستان، وإلى كوريا الجنوبية وتايوان.

إن هذا النمط من الاستيراد والتجديد يعظم استقلال القدرة الدفاعية لإيران ويبعدها عن ابتزاز أمريكا والغرب، ويعظم الاستقلال كذلك زيادة التصنيع المحلى لقطع الغيار والذخائر، إضافة إلى الإنتاج الكامل للأسلحة البسيطة (اللازمة لإستراتيجية عسكرية تعتمد على أعداد كبيرة من البشر الفدائيين).

وتشترك فى هذا الإنتاج ٢٤٠ مؤسسة كبيرة، ولكن يستعان أيضا بإمدادات وحدات صغيرة للقطاع الخاص (يقال إنها تبلغ ١٢ ألف وحدة إنتاجية).

إلا أن الاتجاه نحو زيادة التصنيع المحلى يمتد كذلك منذ ١٩٨٩ إلى الأسلحة المعقدة من التجهيزات الإلكترونية المختلفة إلى الطائرات الحربية والصواريخ، وذلك تحت إشراف مركزى من «هيئة الصناعات الدفاعية»..D.I.O.. وتؤكد تقاريرمن عدة مراكز للبحوث العسكرية والإستراتيجية أن فى قدرة إيران الآن إنتاج ثمانية أنماط من نظم الصواريخ.

* * * * *

وبالنسبة إلى الأسلحة ذات الدمار الشامل، فإن قدرة الصناعة الإيرانية على إنتاج رؤوس كيميائية محل إجماع لدى كل المصادر، أما الأسلحة النووية، فإن الحكومة الإيرانية تنفى امتلاكها أو السعى لحيازتها، إلا أن مصادر أمريكية ترى أن لدى إيران ٢٠٠ عالم ولديها ٢٠٠٠ باحث فى تخصصات مختلفة من الشأن

النووى، وقد تكفلت الإدارة الأمريكية بإلغاء كثير من الاتفاقات العلنية والسرية التى عقدتها إيران مع عديد من الدول من أجل إقامة مفاعلات أو من أجل تعاون فى البحوث وتبادل الخبرات (مع ألمانيا مثلا والهند والأرجنتين والصين).. رغم ذلك، فإن التقارير المسربة تصر على أن إيران استوردت عددا من الخبراء من الاتحاد السوفيتى السابق، وأنها «سرقت» عددا من الرؤوس النووية التكتيكية من كازاخستان وطاجيكستان.. بل تقول بعض أجهزة المخابرات الغربية: إن إيران تسلمت رأسين ذريين تصلحان للصواريخ بعيدة المدى، إضافة إلى قذيفة ذرية يطلقها مدفع.

لاتوجد حتى الآن معلومات مؤكدة.. ولكن القلق واضح من كل التقارير المنشورة فى دول الشمال، وبخاصة فى الولايات المتحدة وإسرائيل.

* * * * *

هذه لمحة تعريفية سريعة عما تعنيه الجمهورية الإسلامية الإيرانية بالنسبة إلينا، وبالنسبة إلى صراعنا مع الحلف الأمريكى-الصهيونى.. إن إيران بقوتها المباركة الصاعدة تهدد السيطرة الأمريكية فى الخليج، وهى بطاقتها الجهادية تفزع اليهود ومن يوالونهم، وهى بصواريخها وأسلحتها تردع أسلحتهم النووية وتحد من أثرها.. وإذا أرادوا ضرب إيران فإن الأمر لن يكون بإذن الله نزهة إن استخدموا الطائرات فدفاعهم الجوى قادر وفاعل، وإذا استخدموا الصواريخ فإن الرد عليهم بسلاح مشابه احتمال يعلمون أنه قائم.

وإضافة إلى كل ذلك فإن إيران عندها السلاح الأخطر.. فحزب الله له جند ينتشرون فى كل أنحاء الأرض، وبخاصة فى قلب الولايات المتحدة.. أرأيت لماذا يتكلم كلينتون عن «الإرهاب» الإيرانى، وعن خطة من أربعين إجراء لمحاربته؟! ولكن كيف توقفون المقاومة لظلمكم واستكباركم حتى لو جعلتموها خطة من مائة إجراء؟!

والآن ما موقفنا نحن من إيران الإسلامية؟ إذا كانت الحكومة تنوى استمرار المواجهة مع الحلف الأمريكي-الصهيونى فإن تصالحها مع إيران يكون مهمة عاجلة.. والإضرار بإيران أو السعى فى ضربها يكون جريمة لاتغتفر.

كان حزب العمل وحده يقول ذلك.. وأظن أن كل العقلاء أصبحوا الآن يقولون مثلما نقول.. والحمد لله.

حزب الرفاه الإسلامى فى تركيا:
درس لحكومتنا وللحركة الإسلامية

فى كتاب الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون «Sieze the Moment» نراه يذكر الأهمية الإستراتيجية لتركيا، ويشير إلى دورها المطلوب.. فتركيا -كما يقول- هى الجسر الجغرافى والحضارى الذى يربط بين العالمين الإسلامى والعربى، وهى تزود حلف الأطلنطى بعدد من الفرق يفوق مايقدمه أى عضو آخر فى هذا الحلف، ويجب أن نشجع تركيا على أن تعمق روابطها الاقتصادية والثقافية مع الشرق الأوسط.. فإذا تقدمت عملية السلام بين العرب وإسرائيل.. ستقفز مسألة موارد المياه الإقليمية إلى رأس جدول الأعمال، وسيكون على تركيا -بالتعاون مع الولايات المتحدة وباعتبارها بلدا غنيا بالموارد المائية- أن تيسر حل مشاكل إسرائيل والبلاد الأخرى ذات المياه الشحيحة عبر أنابيب لنقل المياه.

وفى دراسة مشتهرة نشرتها مجلة «Foreign Affairs» فى عدد يناير ١٩٩٦ عن «الدول المحورية» فى الإستراتيجية الأمريكية، أى عن الدول التى ينبغى للولايات المتحدة أن تركز عليها لكى تتحكم من خلالها فى النظام الدولى، فى هذه الدراسة نعلم أن المجلة اعتبرت مصر هى الدولة المحورية رقم واحد.. وقد ذكرت عن تركيا أنها فى قلب تقاطعات عديدة: بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب، بين الإسلام والمسيحية.. إن تركيا تمتلك القدرة على التأثير فى بلاد تبعد آلاف الأميال عن البوسفور، وتركيا ذات الأهمية الكبيرة لحلف الأطلنطى، تعتمد على نمو

اقتـصادى راسخ، وعلى طبـقة متـوسطة مزدهرة، ولكن تحيطـها مشـاكل داخلية وإقليمية متنوعـة.. وتقول المجلة: «إذا كانت تركيا مزدهرة وديمقراطية ومـتسامحة فإنها ستصبح منارة لكل أرجاء المنطقـة، وإذا كانت تركيا متورطة فى حروب أهلية أو فى عداوات دينية، أو إذا كانت تسعى خلف طمـوحات للتدخل فى الخارج، فإنها تصبح ضارة بالمصالح الأمريكية عبر طرق مـتعددة، وعلى نحو يثير الاهتمام لدى كل الأطراف، من الإستراتيجيين المرتبطين بحلف الأطلنطى إلى أصدقاء إسرائيل».

ومن المؤكد أن أصحاب هذه الدراسة يرون أن الاحتمال الثانى الذى يزعجهم هو الذى تحقق الآن بعد وصـول حزب الرفاه إلى رئاسة الوزارة التركيـة، فهو عندهم سيؤجج الـفتن الدينية والعرقيـة، وحديثهم عن التدخل فى الخـارج يعنى أن تعود تركيـا إلى التعـاون مع الدول العربيـة والإسلاميـة على نحو مـا يدعو إليـه حزب الرفاه..

والحقـيقة أن برنامـج حزب الرفاه (قـبل الانتخابات وأثنـاءها وبعدها) واضح وقاطع، فـهو من منظوره الإسلامى والـوطنى يعارض التبـعية للغـرب، ويعارض التـوسع الإسـرائيلى، ويصـر على تحـرير القـدس، ويرى أن الروابط الـدينيـة والتاريخية من شأنها أن تتجـه بتركيا إلى الشرق والجنوب فى المقام الأول وليس إلى الغرب.. والرفاه له فى هذا الشأن مقترحات طمـوحة ومحددة تشمل إقامة كتلة إسلامية اقتصادية، تقوم على تكامل وسوق مشتركة، بل على عملة إسلامية واحدة (وقد صمم أربكان بنفسه نموذجا لها)!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

إلا أننا لا نتوقع مع ذلك أن يحقق حزب الرفاه أهدافه فى قـفزة واحدة مفاجئة، فمنـهج التجربة الـتركيـة يستلزم التـدرج والتقـدم خطوة خطوة.. وتدخل فى هذا مسألة الحلـف الأمريكى- الإسرائيلى- التركى التى تؤرقنا الآن علـى نحو خاص، فهذا الحـلف قد لايسقط على الفور، ولكن من المؤكـد أنه سيفـقد كثيرا مـن مغزاه

ومخاطره (تمهيدا للإلغاء) مع وصول رئيس للوزارة يعلن منذ اليوم الأول عن نيته زيارة سوريا وإيران والعراق.

والحقيقة أننا لايمكن أن نحكم على دلالة وصول الرفاه إلى رئاسة الوزارة من خلال ما سيفعله صباح الغد، فهذا تبسيط العاجز الذى لايرى أبعد من أنفه.. أما من ينظر إلى ما جرى بمنظور التاريخ والزمن الممتد، فإنه يرى أن وصول الرفاه إلى الحكم هو نقطة تحول حاسمة فى التاريخ التركى.. لقد سقطت مرحلة من هذا التاريخ لتبدأ مرحلة جديدة.

ويجب أن نتأمل مغزى مشاركة حزب الطريق المستقيم برئاسة (تانسو تشيللر) فى التشكيل الوزارى، فهى تعكس اعتراف فريق من العلمانيين المتعصبين بمشروعية قيادة أصحاب الحل الإسلامى لهم وللدولة.. وحزب تشيللر هو أوثق الأحزاب علاقة بالجيش.

فكيف ساند الجيش (خط الدفاع الأخير عن العلمانية التركية أو الكمالية نسبة إلى كمال أتاتورك)، هذا التشكيل الوزارى بقيادة حزب الرفاه؟

من المؤكد أن الرسوخ النسبى للمؤسسات المدنية والديمقراطية جعل الانقلاب العسكرى الآن أعسر مما كان فى السابق، ولكنى أظن أن هذا التفسير وحده لايكفى، فأهم من ذلك أن حزب الرفاه وصل إلى الغلبة النسبية فى الانتخابات العامة وسط تحول اجتماعى وسياسى شامل فى المجتمع التركى.. فالإسلام ظاهر الآن فى كل الهيئات، وفى كل أنماط السلوك الفردى والاجتماعى، وهو يتخلل كل الأحزاب.. وكثير ممن لم يعودوا بعد إلى الإسلام دينا، فإنهم يعودون إليه بالانتماء التاريخى والحضارى مؤمنين مثل «الرفاه» بأن مستقبل تركيا فى الشرق والجنوب وليس فى الغرب.. هذه المنطقة الرمادية بين الإسلاميين المتدينين، وغلاة العلمانيين المتغربين آخذة فى الاتساع وهى كتلة تنفصل عن الكماليين وتقترب بالضرورة من فكر «الرفاه».. والجيش بالقطع ليس بعيدا عن هذه التطورات ولو كره المشركون.

إن عودة الإسلام إلى الأمة التركية كانت رحلة طويلة مضنية، وقد بدأت من الرموز والأدوات البسيطة حتى وصلت إلى ما نراه هذه الأيام.

حين أسقط أتاتورك الخلافة عام ١٩٢٤، حاول بإجراءاته أن يستأصل الإسلام من الجذور، ولكن بعد أن هيىء لهم أنهم نتفوا كل الريش، كان الزغب يظهر من جديد فى الأربعينيات مع عودة الكتاتيب لتحفيظ القرآن، ومع عودة الأذان باللغة العربية.

ومن الناحية السياسية بدأت رحلة العودة مع حزب مندريس فى عام ١٩٤٦ (الحزب الديمقراطى)، ولكن حدثت القفزة على يد البروفيسور أربكان حين أسس حزب النظام الوطنى (١٩٦٩)، ثم حزب السلامة الوطنى (١٩٧١).. وبعد حل هذا الحزب مع الانقلاب العسكرى (١٩٨٠)، أعاد أربكان إنشاء حزبه الإسلامى مرة أخرى باسم حزب الرفاه (١٩٨٧) حين عادت الديمقراطية، لكى يتولى قيادة الحكم (عام ١٩٩٦) ويختم مرحلة زادت على السبعين عاما عاش الإسلام فيها غريبا عن وطنه فى تركيا.

ومعروف أن أربكان وإخوانه أصحاب خبرة سابقة فى الحكم، إذ سبق أن شاركوا فى حكومات ائتلافية.. وقد وضعوا فى تلك الفترات بذورا (فى التعليم والخدمة المدنية والاقتصاد)، وهذه البذور هى التى أينعت الآن.. ولاشك فى أن حزب الرفاه سيكون حاليا فى وضع يمكنه من إنجاز أضعاف ما تحقق فى السابق.

لقد ترك حزب الرفاه وزارتى الخارجية والدفاع، ويعنى هذا أنه سيركز على إصلاحات المجتمع، وأول إصلاح تحقق بالفعل هو ما ذكرته عن حل عقدة التعامل مع الإسلاميين والقبول بحكمهم، وهذا سيؤثر فى موقف الإعلام التركى المعادى للإسلام، وسيؤثر أيضا فى تشكيل الأجهزة الإدارية والتنفيذية التى حرصت تقليديا على إبعاد الإسلاميين -قدر الإمكان- عن مناصبها العليا.. وفى الاقتصاد يملك حزب الرفاه برنامجا إسلاميا واضحا للإصلاح الاقتصادى (يخالف وصفات

صندوق النقد)، وهذا البـرنامج يستهـدف دفع التنمية وخـفض معدلات التـضـخم والبطالة، مع عدالة التوزيع.

وأهم من بنود هذا البرنامج أن القائمين على تنفـيذه سيكونون على خلاف أهل الحكم السابقين (أى سيكونون -كما يقول أربكان- غـير فاسدين ويخشون الله).. ومع السير فى هذا الطريق نرجو أن يتمكن حزب الرفاه بإذن الله من خلال الأخوة الإسلامية ومن خلال الاعـتراف بحقوق الملل (على نحو ما كان يفعـل العثمانيون) من تهدئة الفتنة فى مناطق الأكراد.

* * * * *

إلا أن ماذكرت لايعنى بالتأكـيد أن حزب الرفاه سيعزل نفسـه تماما عن قضايا الخارج، فالصحيح أن كل مـايفعله فى الداخل سيدعم إستراتيجيـته الإسلامية فى الخارج، وسيكسب لها رغم كل المؤامرات تأييداً متعاظما.

* * * * *

بقى أن هذا المنهج التركى فى الإصلاح الإسلامى يمثل خبرة ثمينة لنا فى مصر وفى كل الدول المشابهة.

إنه درس لكل الأطراف من حكوميين وإسلاميين ووطنيين معارضين.

لقد شهدت تركيـا الكمالية حربا ضارية ضد الإسلام لم تعرفـها مصر على هذا النطاق، وبالتـالى فـإن الاستـقطاب كـان حادا جـدا بين الإسلامـيين والعلمـانيين المتـغربين الذيـن تنكروا تماما لـتاريخـهم وحـضارتهم.. وحـتى هذه اللحظة فـإن الأخيـرين يمثلون وزنا جمـاهيريا كـبيرا، وحـصلت أحزابهم على غـالبيـة البرلمان التركى فى انتخابات حرة.

رغم كل هذا ثبت أن الخـروج من المأزق ممكن عـبـر صيـغة مـرنة من تعـاون المتخالفين.

لقد تعرضت إيطاليا فى الستينيات لتحد مشابه حين ثبت أن الانقسام بين الشيوعيين وخصومهم يؤثر فى وحدة الأمة، ويمنع الاستقرار الوزارى، فاقترح الشيوعيون وقتها ماسموه «المصالحة أو المساومة التاريخية».. ولكن هذه الدعوة فشلت، ثم رأيناها تنجح فى تركيا الآن، حيث قام الائتلاف على أساس تركيز الطرفين على ماهو مشترك، مع العمل على توسيع هذه الأرضية المشتركة وتنميتها من خلال استمرار هذا الائتلاف.

ألا يدعونا هذا فى مصر إلى التأمل؟ ألسنا أولى من تركيا بهذه السعة والمرونة؟ أليس التعاون بين الإسلاميين وغير الإسلاميين فى مصر أيسر ويذلل كثيرا من الصعاب ويدعم جبهتنا الداخلية؟

كما قلت فإن كل الأطراف مطالبة بالتأمل فى هذه الخبرة.

ونسأل الله أن يهدينا «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون».

* * * * *

■ ٣ ■

في مواجهة إسرائيل:
هل نختار نموذج المكسيك؟ أم نموذج إيران؟

■ انعقاد المؤتمر الاقتصادى ليس خطأ سياسياً . . إنه كارثة!

■ كيف وصلت المكسيك إلى حافة المجاعة؟

وكيف فقدت استقلالها تماماً؟

وكيف نمشى فى الطريق الذي سلكته؟

■ الحرية الاقتصادية فى إيران واسعة

ولكن فى إطار التوجيه العام للدولة

حرصاً على الاستقلال وحماية للفقراء

ينعقد هذا الأسبوع فى القاهرة المؤتمر الاقتصادى لدعم نتنياهو.. وانعقاد هذا المؤتمر لا يُعد خطأ سياسيا، إنه كارثة.. وهو فى آثاره التدميرية يشبه كارثة حرب الخليج؛ إعلاء لقوة إسرائيل وتشتيتا لوحدة العرب والمسلمين.

يقال: إن المؤتمر ليس سياسيا.. كيف؟! إنه مؤتمر سياسى فى المقام الأول رغم اللافتة المرفوعة التى تزعم أنه مؤتمر اقتصادى. وكيف لايكون فرض الحصار على إسرائيل قرارًا سياسيا؟ وكيف لايكون رفع هذا الحصار -بالتالى- وفتح أبواب التعامل معها قرارًا سياسيًا؟! هل يفرض الحلف الأمريكى-الصهيونى حصارًا قاتلا على أهلنا فى العراق لأسباب اقتصادية؟ وهل يشارك العرب فى هذا الحصار لأنهم يخسرون فى تعاملهم معه؟ وهل سيرفع الحصار عن العراق حين «يكتشف» أصحاب الحصار أن فى التعامل مع العراق كسبا اقتصاديا؟!

إن الحصار على العراق مفروض لأسباب سياسية، وكذلك كان حصارنا على إسرائيل، وقد حطم بعض حكام العرب هذا الحصار علنا حين عقدوا مؤتمرى الدار البيضاء ثم عمان رغم احتلالها أرضنا.. ونحن فى مؤتمر القاهرة نواصل تحطيم الأسوار تحية وتقديرًا للسيد نتنياهو!

دعم الاقتصاد الصهيونى وإبعاد نصف العرب إرضاء لإسرائيل

إن مؤتمر القاهرة سياسى فى المقام الأول، ونتائجه فى الأساس سياسية، ومع ذلك حتى من الناحية الاقتصادية البحتة والمباشرة، فإن مؤتمرنا يخرج الاقتصاد الإسرائيلى من انكماش حال وظاهر.. فمع انتصارات بيريز فى «مسيرة السلام» إياها، ومع اعتراف منظمة التحرير بإسرائيل بعد اتفاقات أوسلو المفرّطة، تدفقت رؤوس الأموال الأجنبية على «زعيمة» الشرق الأوسط، وحقق النمو الاقتصادى فى إسرائيل عام ١٩٩٥ معدلا قياسيا (أكثر من ٧٪).. واستمر الاندفاع فى أوائل ١٩٩٦، ولكن عاد النمو يتراجع أمام تصاعد المقاومة الفلسطينية اللبنانية، ومع

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ٨/ ١١/ ١٩٩٦.

اضطراب المنطقة بعد العدوان الصهيونى على لبنان، ثم مع نذر الحرب الأوسع بعد وصول نتنـياهو إلى الحكم.. يقـول بنك الخصم الإسرائـيلى فى نشرته الشـهرية الأخيرة: إن النمـو الاقتصادى هذا العام سيـنخفض إلى ٣,٨٪، وقد ترتب على هذا الانكمـاش فى التـوسع الاقتـصـادى انخفـاض فى حـصيلة الضـرائب عـما كـان مسـتهدفا، وبالتـالى زاد عجز الموازنة العـامة، وزاد اتجاه الحكومة إلى الاقـتراض لمواجهة هذا العـجز وبخاصة فى الأشهـر الأربعة الأخيرة (أى بعـد مجىء حكومة نتنياهو).

ويقول بنك الخـصم: إن معدل النمـو فى العام القادم (١٩٩٧) سيـزداد هبوطا إلى ٣٪ ما لم تتمكن الحكومة من ضغط إنفاقهـا، وما لم تتمكن من تنشيط «عملية السلام».

وقد بدأت حكومة إسرائيل فى خفض مصروفاتها بالفعل، ولكن سيصعب عليها مواصلة الالتزام بذلك مع توسعهـا المجنون فى بناء المستوطنات.. وبالتالى سيكون الحل الحقيـقى هو تنشيط «عملية السـلام» للإيحاء بأن العرب راضون بنصـيبهم، وبأن الاستقرار مضمون، حتى يعود تدفق الاستثمارات الخارجية.. وهذا بالدقة ما يساعد مؤتمر القاهرة على تحقيقه.

ويقال لنا: إن هذا المؤتمر فرصة للقاء ممثلى الدول العربية لكى يبحثوا شئونهم.. يا سبـحان الله! وهل ستتـركهم أمريكا وإسرائيل وحـدهم دون أن تدس إسرائيل أنفهـا؟! وقد ذكّرنا بعض الزملاء (الذين يكتـبون الآن دفاعا عن عـقد المؤتمر)، بأن اسم المؤتمر الرسـمى والذى تتـمسـك به مصـر هو: المؤتمر الاقـتـصادى للشـرق الأوسط وشمـال أفريقيا، وهذا عظيم ولكن مـا نصيب هذا الاسم من الحقـيقة؟ إن «الشـرق الأوسط» فى هذا المؤتمر (كمـا فى سابقـيه فى الدار الـبيـضاء وعـمان) لايتسع لإيران أو العراق أو سوريا أو السودان، وكذلك فإن «الشمال الأفريقى» فى هذا المؤتمر لايتـسع لليـبيـا.. ياسـادة إن الاسم الرسـمى للمـؤتمر كاذب وخـادع،

والحاضرين لايمثلون من بين أبناء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلا من يرضى عنهم الحلف الأمريكى- الصهيونى، أو من يقبل من دول العرب والمسلمين التعاون مع هذا الحلف المعادى رغم اغتصابه القدس، وكل أرضنا المحتلة.

هكذا كان مؤتمرا الدار البيضاء وعمان، وكذلك يأتى مؤتمر القاهرة تشتيتا للصف العربى والإسلامى -كما قلنا- وبلورة لكتلة عربية تتحلق حول إسرائيل.

* * * * *

وقد كان مقررًا أن يسبق هذا المؤتمر الملعون اتفاق مع صندوق النقد، وقد حدث هذا فعلا، ويزف إلينا هذا النبأ على أنه حقق لمصر واقتصادها نصرًا مؤزرًا.. مع أن هذا الاتفاق يعنى فى ظروف منطقتنا إزالة كل العقبات الاقتصادية فى وجه التعامل الواسع بين مصر وإسرائيل، تبادلا للسلع والخدمات، وفتحا لباب الاستثمار الصهيونى.

إن المؤتمر الاقتصادى كارثة سياسية فى المقام الأول.. والاتفاق مع صندوق النقد هو الكارثة الاقتصادية التى تدعم هذا المؤتمر الاقتصادى.

نموذج صندوق النقد.. وماذا فعل فى المكسيك

إن حزب العمل يرفض نظريات صندوق النقد وما يتفرع عنها من برامج وسياسات.. فهى تورث الخراب وتمكن الدول المتقدمة اقتصاديا من مواصلة استعمارها وسيطرتها، إنها تمكن الدول المستكبرة من نهب مواردنا، ومن فرض التخلف والتشوه على اقتصادات الدول المستضعفة.. وفى حالتنا الخاصة فإن تعليمات صندوق النقد تعنى -فى إطار ما سبق- تمكين الحلف الأمريكى- الإسرائيلى من رقابنا.

إن الانهيار المريع فى الاقتصاد الروسى نتيجة اتباعه سياسات صندوق النقد أمر مشتهر، ولكننى أود أن أتوقف هنا عند انهيار المكسيك من أجل العظة والاعتبار.. والمكسيك دولة أثيرة لدى الولايات المتحدة، وقد اختارتها عضوا معها (إلى جانب كندا) فى منظمة التجارة الحرة NAFTA.

فى المكسيك (كما فى مصر وكل الدول التابعة)، تضمنت سياسات الصندوق مطالب خفض وحشى لسعر العملة، وتجميد الأجور، وإطلاق سعر الفائدة، وهذا جزء من إبعاد الدولة عن إدارة الاقتصاد وتوجيهه، ويشمل ذلك الخصخصة بمعنى بيع المشروعات العامة برخص التراب، مع إلغاء أية قيود على الاستثمار الأجنبى.

لقد طلب الصندوق هذه التغييرات الهيكلية حتى تستعيد المكسيك ثقة الدائنين الأجانب والمستثمرين فينهالوا عليها بالأموال.. وقد تضمنت التعليمات خفضا لعجز الموازنة العامة بأسلوب يحدث انكماشا فى الاستثمار الداخلى، وكان الوعد بأن الاستثمار الأجنبى فيه البركة والعوض.

وقد مضت حكومة المكسيك فى تنفيذ هذه السياسات منذ ١٩٨٣ (تقريبا مثل مصر)، وطوال هذه الأعوام الثلاثة عشر كان مستوى المعيشة يتدهور باطراد باسم «الإصلاح الاقتصادى» والتحول إلى «السوق الحرة».. وقد تفاقم تدهور الإنتاج وتدهور مستوى المعيشة منذ أن أقدمت حكومة المكسيك على تسريع هذا «الإصلاح الهيكلى» عام ١٩٩٥.

لقد كانت ذروة الكوارث الإنتاجية فى قطاع الزراعة، فأصبحت المكسيك لأول مرة دولة تعتمد على استيراد المواد الغذائية (الحبوب واللحم واللبن... إلخ)، ورغم الزيادة فى استيراد الحبوب أصبح متوسط استهلاك الفرد منها يقل بنسبة ٣٠٪ عما كان فى عام ١٩٨١ (قبل بداية الإصلاح المزعوم).

على أى حال قيل لهم (كما قيل لروسيا وكما يقال لنا): هذه تضحية مؤقتة.. وقد قبلت الحكومة المكسيكية هذا الكلام الفارغ، فكانت المثال الذى يضرب فى الإخلاص والطاعة. وفى صيف عام ١٩٩٤ كانت كل المجلات والصحف الاقتصادية تتكلم عن نجاح المكسيك العظيم ورئيسها أنذاك (ساليناس)، فهى قد خفضت عجز الموازنة (بعد أن بلغ مستويات عليا فى الثمانينيات)، وخفضت بالتالى معدل التضخم (تماما مثل حكومتنا)، وكذلك توسعت فى إنهاء التوجيه والتنظيم

للاقتصاد، وصفت القطاع العام فباعت أكثر من ١٠٠٠ شركة كانت تملكها الدولة بأسعار بائسة (كان البيع أساسا للأجانب مقابل الديون)، وكان بعض هذه الشركات من أكبر المعاقل الاقتصادية فى أمريكا اللاتينية (شركة التليفونات Tel-mex - العديد من مصانع الصلب- شركة الأسمدة العملاقة Fertimex - أفرع أساسية فى صناعة البترول... إلخ).

وقد تم هذا النمط الإجرامى من الخصخصة -كما ذكرت- وسط تصفية لكل أدوات التوجيه الحكومى، وشمل هذا إسقاط الحماية الجمركية للإنتاج المحلى (كما يطلب منا الآن).. وقد أشرت إلى أن هذه الإجراءات كانت لخفض الديون وسداد التزاماتها حتى تكسب المكسيك -كما قالوا- ثقة الدائنين الأجانب والمستثمرين، ولكن القطاع العام قبل بيعه لم يكن فى الحساب النهائى مدينا للخارج، ولكن بعد بيع الشركات انطلق أصحابها فى الاقتراض، وقيل أيامها (من الصندوق ومريديه): إن هذه ظاهرة صحية تؤكد حرية التصرف للمستثمرين لزيادة الإنتاجية.. ولكن هذه «الحالة الصحية» أدت إلى عكس ما كان متوقعا.. لقد تمكنت المكسيك نتيجة السياسات التى وصفناها من سداد ١٤ بليون دولار للدائنين سنويا (فى المتوسط) منذ ١٩٨٣، ورغم هذا ازدادت الصورة قتامة.

كان الدين الخارجى الرسمى ٥٧ بليون دولار عام ١٩٨٠، وسددت المكسيك للفوائد وحدها ١٣١ بليون دولار خلال هذه الأعوام، ولكنها وجدت نفسها فى النهاية (فى عام ١٩٩٥) وبفضل السوق وحرية الاقتصاد تحمل دينا يصل إلى ١٥٩ بليون دولار (بدلا من ٥٧ بليونا عام ١٩٨٠).. هذه الصورة للتعامل مع المرابين المتوحشين لاتنفرد بها المكسيك، فالصورة فى كل دول أمريكا اللاتينية (التى تتبع أمريكا وصندوق النقد) تماثل ما حدث فى المكسيك.. وهذا أيضا ما ينتظر اقتصادنا بعد «تحريره»، حيث سنفقد السيطرة على حركة الديون،

وستتجاوز بالتالى كل ما فرحت الحكومة بإسقاطه (رغم أنه أمر لايستحق الفرح بسبب الثمن السياسى والاقتصادى العالى لإسقاط هذه الديون).

لقد تراكمت الديون على المكسيك وتضخمت بدلا من أن تهبط، والدائنون ازدادوا قلقا بدلا من أن يطمئنوا.. أما المستثمرون، فإنهم جاءوا فى الأساس لشراء الأسهم فى الشركات القائمة، ولم يضيفوا أصولا إنتاجية جديدة.. لقد جاء أغلب هؤلاء باعتبارهم مستثمرين مؤقتين (ترانزيت).

وأذكر فى هذا الصدد أنه فى عام ١٩٩١/٩٠ قررت الولايات المتحدة خفض سعر الفائدة لمقاومة الانكماش الاقتصادى، وقد أدى هذا إلى تحول مئات البلايين من الدولارات من حسابات المدخرات الأمريكية إلى الصناديق المشتركة التى تدفع عائدا أعلى، ولكى تتمكن هذه الصناديق من تحقيق ذلك، كان على مديريها أن يتجهوا بالأموال إلى أسواق أخرى، وكانت المكسيك على رأسها.. وحين تغيرت الظروف وعادت أسعار الفائدة الأمريكية إلى الارتفاع كان على نفس مديرى الصناديق أن يغيروا اتجاه الحركة ويعيدوا الأموال إلى بلدهم، ومع هذا التغير فى الاتجاه كان طبيعيا أن يتفاقم العجز فى ميزان المدفوعات المكسيكى، وأصبح على احتياطى النقد الأجنبى أن يسدد الالتزامات.. ويا من تفرحون فى مصر (بسبب التراكم المحقق فى احتياطى النقد الأجنبى) نقول لكم: إن هذا الاحتياطى قابل للاستنزاف بسرعة إذا كان الهيكل الاقتصادى مكشوفا ومشوها على نحو ما فعلوه فى المكسيك.. فى المكسيك كان احتياطى النقد الأجنبى ٣٠ بليون دولار (فبراير ١٩٩٤)، ومع قرار صناديق الاستثمار الأمريكية باستعادة أموالها، كان هذا الاحتياطى قد انحط إلى ٦ بلايين فقط فى ديسمبر من نفس العام.

* * * * *

حين وصل الأمر إلى هذا الحد قال صندوق النقد: إن سعر البيزو (العملة الوطنية) أصبح مبالغا فيه ولابد من خفضه.. وهنا ازدادت الكارثة إذ هرب رأس

المال الأجنبى بالجملة مذعورًا من الخسارة التى أصابت قيمة الموجودات، وخوفا من مزيد من خفض العملة، بل انتشر ذعر المستثمرين الأجانب فى عديد من الدول الأخرى المشابهة، فأسرعوا إلى بيع ما يملكونه فى هذه الاقتصادات.. وفى حالة المكسيك كان على الولايات المتحدة أن تتدخل فى لحظة الذعر السائدة وتساند صندوق النقد فى خدمة السياسات التى استهدفت ضمان حقوق الدائنين الأجانب والمستثمرين (أغلبهم أمريكان)، حتى يتوقف هؤلاء عن تحويل أموالهم بهرولة وبأى سعر محققين خسائر جسيمة.. وقد ثبت أن المضاربين والمغامرين فى الأسواق المالية لايحملون أى قدر من بعد النظر، فهم يتصرفون فعلا بعقلية القطيع، وبمجرد اندفاع أحدهم إلى الباب هاربًا، يلحقه الآخرون بلا تردد أو تفكير.

لقد تطلب إنقاذ الوضع تقديم قرض عاجل للمكسيك يبلغ ٥٢ بليون دولار، ولم يكن بوسع صندوق النقد أن يوفر وحده هذا المبلغ، فأكملت الولايات المتحدة هذه المهمة، وكان شرطها الأول ألا يستخدم دولار واحد من هذا القرض فى إحياء الاقتصاد المكسيكى وتنشيطه.. ومقابل استخدام القرض لوقف انهيار العملة طمأنة للدائنين والمستثمرين الأمريكان فقدت المكسيك سيطرتها على اقتصادها، ووصل الحال إلى درجة أن دخل المكسيك من صادراتها البترولية أصبح يودع فى بنك الاحتياطى الاتحادى (نيويورك) لتتصرف فيه الولايات المتحدة فتسدد مستحقات حاملى السندات من غير المكسيكيين.. وإذا تبقى بعد هذا شىء يحول إلى المكسيك!

وفى الأثناء كان على الشعب فى المكسيك أن يتحمل مزيدا من التضحيات، فقد حقق الناتج المحلى الإجمالى انخفاضا جديدًا أشد، فانخفض عام ١٩٩٥ بنسبة ٧ أو ١٠٪.. وصاحب ذلك مزيد من الانكماش فى الموازنة العامة وأوجه إنفاقها، ومع تدهور الخدمات انخفضت مساحة الأرض المزروعة ٢٠٪، وهبط الاستثمار العام فى قطاع الزراعة بنسبة ٣٠٪، وهبط الائتمان المقدم إلى الإنتاج الزراعى بنسبة ٣٦٪.. إن التراجع الاقتصادى لسنوات عديدة متعاقبة (إضافة إلى الخصخصة)

أدى إلى زيادة البطالة، وقد أضيف إلى هؤلاء العاطلين عام ١٩٩٥ ثلاثة ملايين عاطل جديد.. وانخفض الدخل الحقيقى للأسرة فى المتوسط بنسبة ٣٣٪، وكانت الإصابة لدخول الطبقة المتوسطة أشد إذ انخفض دخل الأسرة من هذه الطبقة فى المتوسط بنسبة ٥٠٪.. وعلقت على كل هذا «انترناشيونال هيرالد تريبيون» تحت عنوان «سقط البيزو أولا.. وبعده سقط الحلم المكسيكى»، وكذلك كان العنوان فى «نيويورك تايمز» «بعد الانهيار: وجهان لاقتصاد المكسيك» وكانت تقصد ظهور وجه الفقراء.

لقد انخفض الناتج القومى للمكسيك فى عام ١٩٩٥ بنسبة ١٠٪ كما قلت، وفى مارس ١٩٩٦ كان وزير المالية (أورتيز) يعترف بأن الناتج القومى قد انخفض فى هذه الأشهر الثلاثة مرة أخرى وبنسبة ٣٪ إضافية..

والأمر لم يعتدل حتى هذه اللحظة، فالمجاعة تهدد أعدادا تتسع، والحكومة تبحث عن الدولارات بأية طريقة لتكوين احتياطى نقدى لسداد التزاماتها الخارجية، وأصبح شائعا أن شبكة المخدرات الدولية وجدت نفسها أمام فرصة ذهبية لغسل أموالها القذرة بطريقة شبه علنية.

ومع هذا.. مازال يقال للمكسيك: هذه خسائر فى الأجل القصير.. ولكنكم ستجنون فى النهاية ثقة الأجانب وازدهار الاقتصاد!

* * * * *

إن الدرس المستفاد هو أن إلغاء الدور الاقتصادى للدولة (على نحو ما يطلب صندوق النقد) أخضع المكسيك تماما لإرادة القوى الخارجية، وهذه القوى التى استولت على مقدرات البلد لم تحدث تدميراً وحسب، بل قادت عملية نهب واسعة وتملكت أصولا إنتاجية ضخمة دون عائد إيجابى للشعب.. بل لقد زادت كما رأينا كل المصائب جوعا وبطالة.. ولكن أخطر الدروس هو هذا الدور الذى لعبه المضاربون المقامرون الذين أجهزوا على حيوية الاقتصاد.. ومن أجل إنقاذ هؤلاء فقدت دولة المكسيك ما بقى من استقلالها فتفاقم الانهيار.

وهذا المنهــج من أوله إلى أخــره نراه يتــوغل عندنا الآن، وإذا كــانــت صناديق الاستــثمار هناك قد انســحبت مهــرولة بذريعة المخاطر الاقــتصادية، فإن الانهــيار عندنا وارد أيضا لأســباب سياســية فى لحظة يراها الحلف الأمريكى-الصهــيونى مناسبة، فاحذروا يا من تتعجلون فى تنشيط المضاربات الدولية على الأوراق المالية فى سوقنا!

ولكن هل هناك نموذج لإدارة الاقتــصاد وتنميــته يخالف النمــوذج الذى يدعونا إليه أعــداء مصــر؟! بالتأكيــد.. والنموذج البــديل هو الذى اتبعتــه كل الاقتــصادات الناجحــة (بدرجة أو أخرى) بدءا من الولايــات المتحدة نفــسها فى بداية انطلاقــها لتنميــة إنتاجها المستــقل.. وإذا عدنا إلى التجارب المعــاصرة الناجحة (شــرق آسيا) فإنهــا جميعــا تمثل نموذجا لإدارة الاقتصــاد وتنميتــه يخالف تماما ما يدعــونا إليه صندوق النقد وأصحابه.. ولهذا الخلاف نجحت.

تجربة إيران الإسلامية والنموذج الثالث

إلا أننا سنقف بشكل خــاص عند تجربة الجمهــورية الإسلاميــة فى إيران، فهى أقــرب إلينا (من حــيث العقــيــدة أو الموقع)، وهى تتقــدم باطراد فى إطار تحــديات خارجية لم تهدأ لحظة منذ قامت الــثورة فى عام ١٩٧٩.. والنموذج الإيرانى يشبه نماذج النمــور الآســيــوية من حــيث إنه يعــتــرف بدور الفــرد دون أن ينسى دور الجــماعــة أو الأمة، إنه لا يصــادر دور الفرد فى التنميــة ولا يخنقه بالتــعليمــات الحكوميــة (كما حــدث فى الشيوعيــة) بل هو يرى فى دفع الناس بعضــهم لبعض خيــرا كثــيرا، ولكن بشــرط ألا يتحــول هذا التدافع أو التنافس إلى فــوضى أو إلى تمكين الأجــانب من الأمــة (كمــا هو حــادث فى روسيــا والمكســيك وفى كل الدول المستضعفة).

إن النموذج الإيرانى (مثل النماذج الآســيوية) هو نموذج ثالث يطلق المنافسة فى السوق، ولكنها منافسة تقودها الدولة وتحميها لتحقيق التنمية المستقلة المطردة.

إن بناء هذا النمـوذج لم يكن سهلا فـى إيران، فقد أدت الثـورة الإسلامـية إلى تأميمات واسعة لأملاك الطبقة التى هربت أو واجهت الثورة، وكانت هذه التأميمات بتدخل ملح من الإمام الخومـينى شخصيا.. ثم أدت المصاعب الاقتصـادية المتفاقمة أثناء حرب الخليج الأولى إلى مزيد مـن سيطرة الدولة الاقتصادية لخدمـة المجهود الحربى أو لـتوزيع الضـرورات الاستهـلاكيـة النادرة بعدالة، ولكن حـتى فى هذه الظروف كان الإمـام الخوميـنى يذكر أن هذه القيـود مؤقتـة، وأن تدخل الدولة لن يصل فى الدولة الإسـلامية إلـى وقف النشاط الخاص، كـان يقول: «إننا نعـد بأنه مادام الإسلام قائما، فإن المشروعات الخاصة ستكون قائمة أيضا» (١٩٨٦)، وكان رافسنجانى يقول: «إن على الحكومة الإسـلامية أن تقود القطاع الخاص لا أن تحل محله» (١٩٨٥).

وبالفعل بدأ التـحرك لإعادة تشكـيل النظام الاقتصـادى على النحو المستـهدف بمجـرد وقف القتـال (أغسطس ١٩٨٨)، وكـان هذا يتضـمن الخصـخصـة، ولكن الخصخصـة فى إيران لم تكن «بيعا للمشروعـات للأجانب وبتراب الفلوس»، ولم تكن كذلك مهمة وحـيدة ينحصر فيها جهد الدولة، ولكن كـانت الخصـخصة عندهم جزءا من إصلاح اقـتصادى حقيـقى ومتكامل يهدف إلى التنميـة الشاملة وتحسين الأداء فى الوحدات الإنتـاجية الوطنية، لقـد أعلن عام ١٩٨٩ عن زيادة دور القطاع الخاص فـى التصـدير والاستـيراد وفى الصناعـة، ثم بدأت إثر ذلك خـصـخـصة المشروعـات العامة، وأعـيدت من أجل ذلك فى طهران سـوق الأوراق المالية (ولكن للمستثمرين الإيرانيين وليس للمضاربين الأجانب).

إلا أن الإصلاح أصبح استراتيجية واضـحة ومركبة مع وصول رافسنجانى إلى الرئاسة، وتقوم الاسـتراتيجية عـلى إطلاق طاقات المواطنين وإمكاناتهم مع تراجع الدور التنفـيـذى للدولة.. على هاتين الـدعامـتين قـامت اسـتـراتيـجيـة التـجـديد الاقتصادى.

كانت هذه الاستراتيجية تعنى تعبئة بلايين الدولارات التى يكتنزها المواطنون لكى يتدفق رأس المال إلى أنشطة إنتاجية كان محروما من العمل فيها.. كانت نسبة القطاع الخاص فى الاقتصاد الإيرانى لا تتجاوز من ٢٥ - ٣٠٪ فى أواخر الثمانينيات وكان مستهدفا أن ترتفع هذه النسبة إلى ٧٥ - ٨٠٪ فى أواخر التسعينيات.

ووفقا للخطة التى اعتمدتها حكومة رافسنجانى جرى التحضير لبيع ٨٠٠ شركة عامة، وقد تسارع التنفيذ الفعلى خلال عامى ١٩٩١ و١٩٩٢، وفق إجراءات وضوابط معلنة وشفافة، ومع إصلاح الشركات المتعثرة حتى تباع أسهمها بالقيمة الحقيقية دون بخس، وقد تطلب ذلك تطوير سوق الأوراق المالية وتحديثها من أجل تيسير مشاركة رأس المال الوطنى.. ومع توافر الثقة باستقرار الحكومة وسياساتها ارتفعت الحركة والتداول فى سوق الأوراق المالية إلى أرقام قياسية، لم تبلغها فى عهد الشاه.. وتقدمت الشركات القابضة والبنوك ومختلف الوزارات والمؤسسات الثورية بعرض الشركات التابعة لها حسب التوسع فى الطلب، وكان هذا فى قطاعات المناجم والصناعات التحويلية، وجرى حفز القطاع الخاص ليستكمل المشروعات التى كانت تحت الإنشاء، وقد بلغت استثمارات القطاع الخاص فى الصناعات الثقيلة عام ١٩٩٠ حوالى ٣٠٠ بليون ريال (حوالى ١٠٠ بليون دولار!) وكان هذا مؤشرا على مدى استجابة القطاع الخاص لولوج هذا المجال الصعب، كما كان مؤشرا على حجم رأس المال المتوافر داخل البلاد، وكان محبوسا عن الاستخدام المجدى (وكل هذا ينطبق على مصر بالمناسبة إذا توافر مناخ سياسى يشيع الاطمئنان).

* * * * *

إلا أن الإصلاح لم يكن مقصوراً على بيع المشروعات العامة، فقد تطلب الإصلاح إعادة النظر فى عمل البنوك، واتباع المرونة فى التعامل مع رأس المال الأجنبى،

وشمل هذا فتح باب الاقتراض من الخارج وإنشاء مناطق تجارة حرة، كذلك تم إصلاح النظام النقدى، والاعتماد على الأسعار الحقيقية فى إحداث التوازن وفى توجيه الاقتصاد.. أيضا تم تحرير التجارة (الداخلية والخارجية) وإعادتها إلى القطاع الخاص.. وأخيرا تكثفت الجهود لاستعادة رؤوس الأموال الإيرانية الهاربة وكذلك الخبرات الفنية والإدارية، وهى إمكانات هائلة هربت بعد الثورة ولكن يمكنها الآن أن تعود وتستخدم فى بناء الوطن بدلا من اشتغالها فى تنمية الاقتصادات الغربية (وقد ثبت فى حالة الصين نجاح هذه المحاولة وجدواها، ولكنها تتطلب ثقة النظام الحاكم بنفسه.. وكذلك ثقة أصحاب الأموال والكفاءات بأن النظام لن يغدر بهم إن عادوا.. والمحاولة تلقى نجاحا ملحوظا الآن فى إيران).

الدولة تنظم السوق وتقودها

إلا أن هذا الاتجاه نحو إطلاق طاقات البشر وكفاءاتهم ليس مبدأ مطلقا لايجوز المساس به فى أى حال، وهو كذلك ليس تنافسا فوضويا بلا ضوابط من الدولة وتوجيه. وقد رأينا أن ظروف الثورة فى بدايتها تطلبت تنظيما اقتصاديا يغلب المركزية، فخضعت القيادة لهذه الضرورة، وحين تهيأت الظروف تم الانتقال بطريقة منظمة من المركزية المبالغ فيها إلى نظام التوازن بين الخاص والعام.. إن الدولة الإيرانية الآن، وفى ظل هذا الاتجاه لإطلاق القطاع الخاص لا تتردد فى استخدام حصيلة بيع المشروعات القائمة فى إنشاء مشروعات جديدة إستراتيجية تتطلبها التنمية واعتبارات الأمن القومى، ويدخل فى هذا عدد من الصناعات، إضافة إلى التركيز على الهياكل التحتية وبخاصة السدود وشبكة الطرق ومحطات الكهرباء الحرارية والنووية، وهى مشروعات ترتبط بهدف زيادة الإنتاج (وليس لخدمة المنتجعات الترويحية كما حدث عندنا).. والدولة لا تتوقف فى استثماراتها عند هذه الأمثلة، فمساهمة فى حل مشاكل البطالة فى المناطق المهمشة مولت من ميزانيتها ٣١٠ مشروعات تعاونية عام ١٩٩٥.. إلا أن هذا الاستثمار المباشر من

الدولة لم يفزع القطاع الخاص ولم يجعله يتصور أن الدولة تعود إلى إحكام قبضتها، لأن السياسات الاقتصادية مستقرة وانطلقت من مؤسسات مسئولة بعد مناقشات مطولة.

وقد تحدثنا عن تحرير الأسعار حتى تكون معايير يرتكن إليها فى الحسابات الاقتصادية للمنتجين والمستهلكين، ولكن هذا التحرير لم يكن ليغفل حماية الفقراء، فرغم الأعباء الشديدة على الإنفاق الحكومى كان دعم السلع، والخدمات الضرورية فريضة، يشمل ذلك المنتجات الغذائية (قمحا وأرزا) إضافة إلى زيت الطعام والسكر واللبن والجبن (مخصصات الدعم فى موازنة ١٩٩٧/٩٦ تبلغ ١,٥ بليون دولار، إضافة إلى ٣٥٠ مليون دولار لدعم الأدوية).. إلا أن دعم الفقراء فى المجتمع الإسلامى لاينحصر فى هذه الإجراءات الحكومية، فكل مؤسسات الزكاة والبر تعمل على إعادة توزيع الناتج المحلى لصالح المحرومين.

وقد ذكرت أنهم شجعوا الاستثمار الأجنبى المباشر وأصدروا قانونا فى هذا الشأن، وهذه التيسيرات تشمل استبعاد حد أقصى لحصة الشريك الأجنبى فى المشروع، ولكنها ربطت هذه التيسيرات بشروط، منها أن تقوم المشروعات على تكنولوجيا متقدمة وتحقق قيمة مضافة عالية، ولا تنتج سلعا تافهة (كالدجاج المشوى وما أشبه!).. إلخ. والدولة الإيرانية تفتح الباب الآن أمام القطاع الخاص لينشىء المطارات ويديرها، وكذلك الطرق ومحطات الطاقة وشبكات توزيعها.. ولكن هذا محصور فى الإطار الوطنى ولا يسمح للأجانب بهذا الانتشار المهدد للأمن القومى (كما يحدث الآن عندنا).

فى كل هذا تتدخل الدولة وتوجه، صيانة للاستقلال.

وقد تحدثت أيضا عن الدور الغالب للقطاع الخاص فى التصدير والاستيراد، ولكن هنا أيضا تتدخل الدولة لضمان التوازن، ولتوجيه الاستخدام للنقد الأجنبى.. وحين تزايد العجز فى الميزان التجارى وميزان المدفوعات.. وتراكمت الديون

الخارجية بالتـالى إلى درجة مقلقة، تدخلت الدولة للمساعـدة على زيادة التصدير، وفرضت سقفا على الواردات. وقد ارتفعت حصيلة الصادرات غير البترولية بالفعل إلى أكـثر من خـمسـة بلايين دولار سنويا.. ومع هذه الزيادة فى الصـادرات التى صاحـبهـا حد من الاستـيراد انقلب العـجز إلى فـائض مكن إيران من الانتظام فى تسـديد ديونها وتجنبت بالتـالى إذلال الدائنين وشروطهـم السياسـية التى تـهدد الاستقلال.

والأمر نفـسه يقـال عن سعر العـملة، فقـد قررت إيران توحيـد سعـر الصرف للريال الإيرانى وأصـبح قـابلا للتـحـويل بشكل كـامل (أبريل ١٩٩٣)، ولكن حين حدث شح فى النقـد الأجنبى (نتيجة الحـصار والتآمر الذى لم يتـوقف) لم تتردد الدولة فى العودة إلى سعرين للجنيه دعما لسلع الاستهلاك الضرورية.

* * * * *

وهناك أمر أخير أذكره فى شـأن الاقتصاد الإيرانى، فكل المراجع الدولية تشكو ندرة البيانات.. وهذا طبيعى؛ إذ كيف تـكشف دولة عن أسرار إنجازها وتقدمها فى ظروف يحيط بهـا الأعداء من كل جانب؟!.. إن الكتـمان هنا ضـرورة أمنيـة للنجاح، وقد أضـيف أن إسرائيل تتـبع هذا المنهج نفســه، فرغم كل الجعـجعـة التى تصدر عنها، فإن وقائع اقتصادها الفعلى، اقتـصادها السياسى وروابطه الخـارجية، تعتبر أسرارا لا تذاع.

ما أبعد هذه الصورة عـن أوضاعنا الاقتصادية التى يعرف الأعـداء كل وقائعها (وإن كان أهل البلد فى «العتمة»)!

ماذا يقول الأعداء عن نتائج التنمية الإيرانية

ماذا كانت النتيجة المحققة من كل ماسردت؟

رغم خفض أسعار البترول، ورغم الحصـار الاقتصادى الأمريكى، ورغم ارتفاع نفـقات الـدفاع، هناك إجـمـاع بين المراقـبين على أن المنهج الإيرانى فى الإصـلاح

الاقتـصادى أدى إلى تقدم ملحوظ كـمى وكيفى فى الإنتـاج. ورغم غيبة البـيانات الدقيـقة، فهناك إجـماع على أن الإنتاج الزراعى حـقق أرقاما قيـاسية قللت حـاجة إيران إلى اسـتـيراد سلع غـذائيـة، وكذلـك تمت تنميـة ظاهرة للصناعـات المدنيـة والعـسكرية (وهى صناعـات مؤمنة ضـد الاخـتراق الأجنبـى لأنها فى يد رجـال الأعمال الإسلاميين الوطنيين).. كذلك هناك إجـماع على اتساع الاعتماد على النفس فى مجـال البحث العلمى والتطوير الـتكنولوجى، وقد لاحظ حسـن روحانى (نائب رئيس المجلس/البرلمان) تزايد التصريحات الأمريكية الهستيرية منذ مارس ١٩٩٥، وقد عـزا ذلك بحق إلى «زيادة المخاوف الأمـريكية من الاستـقرار والتـقدم اللذين تحققهما إيران».. وبوسعنا أن نقول: إن وزير الخارجية الأمريكية كان بالفعل تحت تأثير هذا الهاجس حين أكد أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سبتمبر من نفس العام (١٩٩٥) أن إيران هـى وحدها الراعى الأكبـر للإرهاب والذى يسعـى لإنتاج سلاح نووى.. وقـد زادت الهسـتيـريا كمـا نعلم فى هذا العام (١٩٩٦)، حـتى أن الإدارة الأمريكيـة أصدرت فى يونيو قـانونا يعاقب الشركـات غير الأمـريكية التى تساعد إيران فى تنمية إنتاجها البترولى.

و.. من المناسب أن ننقل أخيرا تقديرات البنك الدولى حـول الظاهرة الاقتصادية الإيرانية -كـما أذاعتـها وكالة رويتـر- وباختصـار فإن هذه التقـديرات تقول: إن الاقتصاد الإيرانى قد استقر رغم العـقوبات الأمريكية، وإنه يستعد الآن للانطلاق، وتقديرات الاقتـصاديين المتابعين تقول: إن الاقتصـاد الإيرانى يحقق هذا العام نموا بمعدل ٣,٥٪ ترتفع إلى ٤٪ فى العام القادم (١٩٩٧) (ولكن تقول الأرقام الإيرانية إن المعدل ٧٪).. وقـد ذكر اقتصـاديون كبار ومـعلقون سيـاسيون (رفضـوا ذكر أسمائهم) أن الإيرانيين يشعـرون الآن بثقة عالية بالنفس بعد أن حقـقوا الاستقرار فى التوازنات الكليـة لاقتصـادهم، وهم مرتاحون لسيـطرتهم على الدين الخارجى الذى ينخفض بجـهدهم الذاتى إلى ١٤ بليون دولار (عام ١٩٩٧) بـعد أن كان ١٨

بليونا هذا العام.. وهم غير منزعجين من أثر العقوبات الأمريكية لأن حلفاء أمريكا يرفضون هذه العقوبات، وهم يتعاملون مع إيران باعتبارها «قوة إقليمية عظمى».. ورغم كل القيود التى تفرضها أمريكا على إيران فإن الاستثمارات الأجنبية (فى غير قطاع البترول) تجاوزت ٤ بلايين دولار عام ١٩٩٥.

* * * * *

إن التجربة الإيرانية (مثل تجارب شرق آسيا الناجحة) تعتمد كما رأينا على تشجيع التنافس وعلى الحرية الاقتصادية المنضبطة.. وقد عاب على إيران مؤخرا خبير فى صندوق النقد الدولى، فقال إنها لم تصل فى الخصخصة إلى المدى المطلوب، حيث قدر أن نسبة القطاع الخاص ارتفعت من ٢٠٪ (عام ١٩٩٠) إلى ٤٠٪ فقط فى هذا العام.. وحتى لو كانت هذه التقديرات صحيحة، فإن عداء الصندوق للتجربة الإيرانية لايرجع بالتأكيد إلى هذه القضية، ولكن يرجع العداء الأصيل إلى أن نمط السوق الذى تقيمه إيران وتديره يختلف تماما عن مفهوم السوق الذى يدعو إليه الصندوق، وكذلك فإن نمط الخصخصة وآلياتها يختلف، وأيضا فإن حرية التجارة عند إيران تختلف، وحرية رأس المال الأجنبى تختلف.

إن الحرية الاقتصادية المنظمة فى جمهورية إيران الإسلامية هى فى خدمة التنمية المستقلة ولتعظيمها، وهى تستهدف منع نهب الموارد، وكل هذا على نقيض الفوضى التى يدعو إليها الصندوق وتستهدف عكس النتائج التى تحققها إيران.

إن النموذج الإيرانى يؤكد إمكانية الاعتماد على النفس فى تحقيق التقدم وفى إدارة علاقات دولية مواتية.. ومن هنا فإن فى هذا النموذج (كما فى النماذج الآسيوية الناجحة) الكثير الذى ينبغى أن نتعلمه.. ولكن المؤكد أن اتباع هذا النموذج (خصوصا فى منطقتنا الملتهبة) يكلف صاحبه مشقة هائلة وتضحيات جسيمة.. وهو يتطلب قيادة قوية وأمينة.

* * * * *

و.. فى الحقيقة لايمكن استيعاب الصورة الكلية للإنجاز الاقتصادى فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية، دون إشارة إلى الإمكانات النفطية.. وإمكانات الغاز الطبيعى (إيران تملك ثانى احتياطى للغاز فى العالم بعد روسيا).. وكذلك لايمكن أن نستوعب كل أبعاد القوة الإيرانية التى تنعكس على تنمية اقتصادها، دون حديث عن أثر الالتزام الدينى وعن نتائج الموقع الجيوسياسى الفريد.

ولكن حسبنا أننا أردنا فى هذا المقال أن نركز على النموذج التنموى وما يتفرع عنه من سياسات اقتصادية وإجراءات تخالف ما تتبناه حكومتنا، ومن الطبيعى أن تختلف النتائج عندنا بالتالى عن النتائج التى تتحقق فى إيران.. فالاقتصاد فى مصر هش ويسهل على الحلف الأمريكى-الإسرائيلى اختراقه وإخضاعه.. أما الاقتصاد فى إيران فيتعذّر على الأعداء أن يطوعوه أو يشوهوه.

نسأل الله أن يوفقنا لاتباع المنهج الصحيح؛ تمردا على صندوق النقد وأصحابه.

* * * * *

الجزء الثالث

الرحلة الثانية:

- ١ -

أهم من الإنجازات المادية فى إيران: ماذا جرى للناس؟ وماذا جرى للفقه؟

- أفهم أن تعادوا السياسات الإيرانية ..
  ولكن كيف تحاربون التعريب فيها؟!
- وكيف تمنعون مقرئينا من إسماع الإيرانيين صوت الله؟!
- دراسات جادة فى إيران للتقريب بين المذاهب .. ومقارنات الكمبيوتر للمراجع أكدت اتفاق الشيعة والسنة فى ٩٠٪ من القضايا الأساسية
- مواقف الشيخ الغزالى عليه رحمة الله ..
  ومواقف الدكتور القرضاوى محل تقدير علمى واسع

غبت عن أرض الوطن فترة، وانقطعت عن الكتابة ثم هاأنذا أعود لأجد كل شيء على حاله.. تماما كما تركته!

دعك من التصريحات التي تتفنن كل يوم في إعلان الطرائف والغرائب.. فأنا أتحدث عما يجرى فعليا، وفي هذا الإطار أقول إنه في مجال الإصلاح والإنجاز -بالعمل لا بالكلام- لايحدث أى تقدم على الإطلاق!

على مستوى السياسات الرسمية فى المنطقة لن أكرر موقفنا المؤيد للمواجهة مع الحلف الأمريكى- الصهيونى (وإن كانت مفككة وقلقة)، ولكننى أكرر (ولن أمل من التكرار) أن المواجهة المؤثرة لن تكون بالكلام والتصريحات فما لم تسند الكلام قوة وإرادة فلا جدوى.. إننا الآن فى الطريق إلى حالة من اللاحرب واللا سلم مع إسرائيل.. ولن ينكسر هذا الجمود، ولن يتحرك الموقف لاستعادة حقوقنا(والقدس فى قلبها) إلا إذا أظهرنا فى وجه الأعداء قوة يخشونها.. وإعداد القوة التى نظهر بها على الأعداء قد يتطلب زمنا، ولذا فلا بأس من تجميد الموقف فترة بشرط أن نستفيد بهذه الفترة فى العمل الجاد إصلاحاً لما تم إفساده خلال السنوات الطويلة الماضية. إن الحكومة تواصل سياستها الاقتصادية التى أوقفت التنمية ونشرت الفقر والبطالة ومكنت الحلف الأمريكى- الصهيونى من رقابنا..

هذا ما يجرى ويتواصل على أرض الواقع، وهذا ما يجب تغييره على أرض الواقع، إذا كان أهل الحكم جادين غير هازلين.. وإلى جانب استمرار التبعية الاقتصادية وما ولدته من خراب وفساد ونهب، فإن القوى الإسلامية والوطنية مازالت محل حرب ومطاردة، بالأمن والمحاكم العسكرية، وبالإعلام وإشاعة الثقافة المنحلة المشوهة.

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٩٩٧/١/٧

إن استمرار هذه الأوضاع والسياسات لن يوحد أمتنا فى مواجهة أعدائها..

ونقول لكم يا أهل الحكم بكل قوة وصراحة: إن كل الضجيج الذى تحدثون حول شهادات وهمية أو عن مشروعات غير مدروسة، لن يخدع الناس عن حقيقة عجزكم عن الإتيان بإصلاح شامل يجعل المستقبل مختلفا فى قتامته عما جرى فى الماضى.

شهادات وهمية بالتفوق..
ومشروعات عجيبة غير مدروسة!

وبالنسبة إلى الشهادات الوهمية فإننى عجبت وخجلت مما نشرته الأخبار (الثلاثاء الماضى) فى صفحتها الأولى عن مؤسسة «المتحدون للإعلام والتسويق البريطانية»، وعن استطلاعها لرأى الشعوب العربية والذى أسفر عن اختيار الرئيس مبارك قائدا للعرب بنسبة ٩٥٪ (ولا أدرى لماذا لم تكن النتيجة ٩٩,٩٪؟!). وكذلك تم اختيار السيدة قرينة الرئيس (بدون منافس) شخصية العام النسائية.. إضافة إلى انتخاب العرب، الدكتور الجنزورى أكفأ رئيس حكومة وحسن الألفى أروع شخصية أمنية.. ماهذا الهراء ياأصحاب «الأخبار»؟! إن هذا الذى نشرتموه سيجلب عليكم غضب الرئيس وكبار المسئولين من حيث أردتم المجاملة والنفاق، فالحكاية من أولها إلى أخرها كذب بلا أساس، ونشرها يضحك الأمم من جهلنا!

ونحن نؤكد كذب حكاية الاستطلاع بكل هذه الثقة لسبب بسيط هو أن الدول العربية كافة لاتسمح بإجراء أية استطلاعات للرأى العام فى بلادها حول أية قضية! فما بالكم إذا كان الاستفتاء حول شعبية الملك أو الرئيس فى هذه الدولة أو تلك مقارنة بشعبية الرئيس مبارك، أو مقارنة رئيس الحكومة هناك برئيس حكومتنا؟! إن هذا الاستفتاء لم يكن ليمنع وحسب، ولكن إذا كان قد جرى كنا

سنسمع عـن حملة اعتـقالات للملايـين التى شاركت فى هذا الاستـفتـاء المزعوم داخل البلاد العربية المختلفة!

فى الحـقيـقـة، كـان ممكنا أن أتجاوز عـمـا نشـرته «الأخبـار» لولا أنه سـبق لـ«الأهرام» أن نشر بدوره فى صفحته الأولى الخبـر نفسه عن هذا الاستفتاء الذى قامت به «مؤسسة المتحدون للإعلام والتسـويق البريطانية»! وبالتالى أصبح صعباً أن أعتـبر الأمر مجـرد سقطة، فقـد بدا أن هناك جهة ما تـلح على نشر هذا الكلام الفارغ وكأن فيه نفعا، ولذا كان علينـا أمام إصرار هذه الجهة (التى لانعرفها) على الإساءة إلى صـورة مصـر وسمـعتـها.. أمام هـذا الإصرار كان لابد أن نـتوقف ونقول: هذا عيب!

إن الإعلام الرسمى يؤذى أهل الحكـم بهذه الأساليب، وكذلك فإن التـصـريحات الرسمية عن البـرامج غير المدروسة لايفيد.. بل يتحـول الأمر إلى كارثة إذا تحولت هذه التصريحات إلى إجراءات تنفيذية تتبدد فيها الأموال والمصالح القومية.

إننى أشيـر إلى حكاية مشروع قنـاة الشيخ زايد.. ولن أكرر فى هذا الصـدد ما كتبه الأستـاذ مجدى أحمد حسين، ولن أكرر أن هذا المشـروع (ومعه قناة السلام إلى سـيناء) نموذج لعـشوائيـة القـرارات فى مصـر، ونموذج لأسلوب الاحـتقـار لأصحاب البلد ومثقفيه وسيـاسييه وفنييه.. لن أكرر هذا الكلام، ولكننى سأضيف: لو كان صـحيحـا أن هذه المشروعات تنفـيذها ميـسور وماؤها مـتوافر وفـائدتها بالتالى مؤكدة، لو كان هذا صحيحا لوجب علينا تقديم من حكمونا فى السابق إلى محكمة شـعبية لتقتص مـنهم، إذ كيف منعوا عن البلد هذا الخير العـميم؟! بل كيف أخفوا عنا أخباره حتى الأمس القريب؟!

إن حكاية مشـروع قناة الشيخ زايد لاتنفصل عـما قيل مؤخـراً عن خطط نشر السكان فى ٢٥٪ من أرض مـصـر (بدلا من ٤٪ حـاليـا).. وفى قـول آخـر. إنهم سينشـرون فى ٥٨٪ وفى إطار تنميـة تقفز بمعـدل النمو السنوى للنلج الإجـمالى

سبعة أضعـاف (من ١٪ إلى ٧٪) ، وتهبط بمعدل البطالة إلى الربع (تصبح ٥٪ من عدد العاملين بدلا من ٢٠٪).

عيب والله أن تبـيعوا الأوهام والأحـلام على هذا النحو.. عيـب والله أن تمتهنوا عقـولنا إلى هذا الحد.. ولكنكم فـى الحقيـقة مـعذورون، فلو كان بوسـع التـشكيل الوزارى الحالى أن يقدم أكثـر من الكلام لفعل هذا منذ سنوات طويلة ولكان حالنا اليـوم على غيـر ما نـراه.. إن هذا التشكيل الذى ورثـه الجنزورى عاجـز.. ويكمله مجلس شعب مـزيف.. ومالم يتعدل هذا التشكيـل الوزارى، ومالم يحل المجلس فلا ينبـغى أن نندهش إذا انطلقت التصـريحات الجـوفاء لتـخفى الـعجز عـن الإصلاح الفعلى والتقدم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ذكرت فى بداية المقـال أن الأسابيع التى غبتـها لم تشهد جديـداً داخل مصر.. والحقيقة أن العام كله (١٩٩٦) لم يشـهد جديداً يقدر فى مجال الإصلاح الداخلى.. ودون إصـلاح سيـاسى شامل يضـع القوى الإسـلاميـة والوطنيـة فى موقـعهـا الصحيح من الحكم ومن التشريع والمراقـبة، وأظن عام ١٩٩٧ لن يكون أسعد حالا من العام الذى انقـضى.. وستنعزل مصر بـالتالى -لاقدر الله- عن مجـرى التقدم العام الذى يصيب كل الأمة الإسلامية من حولنا.

زيـــارة ثانيـة لإيـــران
ماذا رأيت بعد ٨ سنوات

وينقلنا هذا إلى زيارتى لـلجمـهورية الإسـلاميـة فى إيران، وهى زيارة لم تكن بتخطيط مـسبق وإن تمنيتها.. فـحين وصلتنى دعوة لحضـور ندوة فى طهران عن دور القيم الأخلاقية فى الصحافة الإسلامية لم أتردد فى انتهاز الفرصة للمشاركة فى الندوة، وللاطلاع بشكل مباشر على مايجرى فى إيران.

إن الإعلام الغربى وتابعه الإعلام العربى فى أغلب الأقطار، يصب الأكاذيب والأضاليل عن الجمهورية الإسلامية منذ أن نجحت الثورة فى مطلع عام ١٩٧٩.. وهذا السيل المتواصل من الافتراءات لايواجهه للأسف إعلام إيرانى نشط وعلى مستوى مناسب من الانتشار والكفاءة.. وبالتالى فإن الكثيرين معذورون إن هم جهلوا مغزى قيام دولة إسلامية فى أمة عريقة كالأمة الإيرانية.. لقد تصورت دول الاستعمار والاستكبار أنها أنهت مسألة الحكم بالإسلام حين سقطت الخلافة العثمانية فى عشرينيات هذا القرن.. ولكن الشعب الإيرانى فاجأ الجميع حين انتفض عن بكرة أبيه، برجاله ونسائه وأطفاله، وبقيادة الإمام الخومينى –عليه رحمة الله– فأقام من جديد، وبتضحيات مذهلة، دولة تلتزم بشرع الله.. فماذا حققت هذه الدولة؟!

رغم ندرة المعلومات، حاولت أن أتابع.. والمتابعة لما ينشر من بيانات متفرقة تعسَّر مهمة البحث علىّ وعلى كل الباحثين، ومع ذلك فإن الصورة التى أمكن تجميعها عن التطور الاقتصادى وعن النظام السياسى وعن إدارة العلاقات الإقليمية الدولية، دلت على أن الجمهورية الإسلامية حققت رغم الحرب المتصلة ضدها (ساخنة وباردة) إنجازات مذهلة (وقد أشرت إلى ذلك فى مقالات سابقة).. إلا أن هذه الصورة الإجمالية ظلت تحتاج إلى رؤية بالعين وإلى معاينة مباشرة لكى يطمئن القلب.. لقد كانت زيارتى الأولى إلى الجمهورية الإسلامية فى بداية عام ١٩٨٩، فماذا حدث خلال الأعوام الثمانية التى انقضت منذ هذه الزيارة؟ لقد كنت تواقا إلى إجراء هذه المقارنة بنفسى.

ثم إن الموضوع الأهم للدراسة عندى والمتابعة، هو موضوع الأمة الإيرانية.. موضوع الناس. لقد رأينا صمودهم أمام كل ما ابتلوا به مذهلا، فهل مازالوا على العهد صابرين وقادرين على العطاء؟!

وهل تجدد الفقه الإسلامى فى إيران ليثبت أنه قادر على إجابة الأسئلة التى يطرحها العصر مؤكدا بالتالى إيمان الشعب بشرع الله؟

إن أغلب ما يصلنا من معلومات يأتى للأسف من مصادر غربية، وهذه تركز على الجوانب المادية دون اهتمام أو فهم للجوانب التى أشرت إليها الآن والتى اعتبرها أساسية وحاسمة فى تقرير المستقبل.. إن فهم الجوانب الفقهية والروحية كان يتطلب حواراً مباشراً فى إيران مع أصحاب الشأن، ويتطلب قراءة متعمقة للدراسات التى أمكننا أن نصل إليها (بالعربية أو الإنجليزية)..

والمؤشرات التقليدية حول مايسمى التنمية البشرية تضع الجمهورية الإسلامية فعلا بين دول المقدمة فى المنطقة.. فالدولة تخصص نسبة عالية من ميزانيتها للتعليم (٢٢٪)، وعدد الطلبة (ما قبل مرحلة التعليم العالى) بلغ أكثر من ١٨ مليونا.. وطلاب الجامعات الآن تسعة أضعاف ما كان قبل الثورة.. ونسبة الأمية كانت ٥٢٪ فأصبحت الآن أقل من ٢٠٪، ولم يعد هناك فارق يذكر بين نسبة الأمية عند الذكور ونسبتها عند الإناث.. ولكن أهم من هذه الأرقام والنسب الإجمالية، أن مستوى المناهج واستيعابها يرتفع باطراد.. وفى كل المسابقات الدولية للطلاب المتفوقين، يحصل الطلاب الإيرانيون على المواقع المتقدمة، خاصة فى الرياضيات والفيزياء والكيمياء (على حساب أقرانهم فى الدول الغربية واليابان!)...

ومعروف أن التعليم فى إيران هو فى الأساس بالمجان (بل للطلاب مكافآت شهرية) وإن كان هناك قسم يتولاه القطاع الخاص، لقاء مصروفات.. ولكن هذا التعليم الخاص إيرانى تماما (وليس قطاعا أجنبيا) وهو خاضع لإشراف وزارتى التعليم والتعليم العالى.. وبتعبير محدد فإن التعليم الخاص ليس متغربا، ولايعتبر بأى حال تعليما ذا مستوى رفيع يختص به الأثرياء على نحو ما هو جار عندنا الآن.

ولكن كل ما ذكرت يظل فى إطار المؤشرات التقليدية.. ويهمنا فى مجال التنمية البشرية بشكل خاص، ومن خلال التعليم، أن نتابع العلاقة مع عقيدة الأمة وكذلك مع اللغة المستخدمة فى التعليم.

ومشكلة العلاقة بين التعليم والعقيدة الدينية هى مشكلة حقيقية فى كل المجتمعات المستضعفة حيث تعمدت دول الاستعمار أن تفرض مناهجها التعليمية فى مدارسنا وجامعاتنا.. وهى مناهج دنيوية بالضرورة تقتلع الدين أو تهمشه من عقول الخريجين وقلوبهم.. وقد واجهت الجمهورية الإسلامية فى إيران هذا التحدى الخطير منذ قيامها، وهو تحد مازال قائما، وبخاصة فى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية (وطلابها فى التعليم العالى مازالوا الأغلبية: ١٦٨ ألفا مقابل ٩١ ألف طالب للطب والخدمات الصحية و٨٦ ألفا للعلوم الهندسية). وسنعرض فى مقال تال بإذن الله، كيف تطورت العلاقة بين قطاع التعليم العلمانى المتغرب و قطاع التعليم الإسلامى الذى ساده الجمود لقرون طويلة.. وكيف جرى هذا التفاعل الهائل داخل الأمة الإيرانية بعد الثورة؟ وهذا التفاعل التاريخى لم ينحصر بطبيعة الحال فى مواقع التعليم، فتطوير التعليم هو فى إطار ما يجرى فى المجتمع كله لتطوير البشر.

لماذا تناهض مصر انتشار اللغة العربية بإيران !

ولكن ما أثر هذا التفاعل التاريخى فى العلاقة المستقبلية بين إيران والأمة العربية؟ إن هذا السؤال يذكرنى بسؤال وجهه لى الصديق د.حسن نافعة. كنت قبيل زيارتى إيران أتحدث فى المؤتمر السنوى لمركز البحوث والدراسات السياسية (التابع لكلية الاقتصاد). كان موضوع الحديث تحليلا لسياسات مصر الخارجية من منظور حزب العمل، وكان طبيعيا أن يتطرق حديثى ضمن ما يتطرق إلى نقد مواقف حكومتنا من إيران وتركيا.. فسألنى د.نافعة عن رأيى حول علاقة العروبة بالإسلام.. وهو سؤال تبدو إجابته عندى بدهية، ومع ذلك فإن دماء كثيرة قد سالت دون أن تحسم حتى الآن الإجابة!

على أى حال، لو كانت العروبة رابطة عرقية مغلقة، لكان واجبا أن نتنبه إلى أن وصول أصحاب العمامة السوداء إلى قيادة الأمة الإيرانية، يعنى أن على رأس هذه

الأمة مـن ينتسـبون بصلة الرحم والدم إلى العـرب، فأصـحاب العـمائم الـسوداء (الإمام الخومينـى ومن بعده مرشد الثورة أية الله خامنئى) هم من الثـابت نسبهم إلى آل رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ولكن نعيذ أنفسنا من هذا الفهم للعروبة.. فالعروبة ليست مقيدة بعنصر معين، أو بأرض محددة،، فالعروبة ترتبط باللسان، وبلغة القرآن المقدسة، فكل من تعلمها وتعامل بها تعرب.. ولذا فإن أمة العرب لاتتوقف عن التوسع واستيعاب أقوام جدد بقدر ما يتم التوسع فى استخدام اللغة العربية.

وإذا كان الإسـلام لاينفصل عن لغة القـرآن.. فإن المسيـحيين فى مـصـر وبلاد الشام تعربوا دون أن يتخلوا عن دينهم.

فى هذا الإطار، كان قيام الجمهورية الإسـلامية فى إيران إيذانا بنشر التعريب، بقدر مـا كان التراجع فى الالتـزام الإسلامى طريقا لتوغل الـفرنسية على حـساب العربية فى الجزائر ، بل طريقا لتراجع العـربية فى مصر لصالح اللغة الإنجليزية.. وهذا يحـدث لأول مرة فى تاريخ مـصر منذ أن فـتح الله أرضنا وقلبنا للإسـلام، فطوال القرون الماضية كانت مصر حصنا للإسلام وكانت حصنا للعروبة ولسانها، وفى العصـر الحديث حـين احتلت دول الاسـتعمـار كل أقطار المسلمـين، وحاولت اقتلاع اللغة والحضارة المستقلة، كانت مصر هى الحافظة والمدافعة.

✲ ✲ ✲ ✲ ✲

على أى حال.. فى الجمهورية الإسلامـية تقرر منذ الأيام الأولى أن تصبح اللغة العربية مقررة إلى جانب الفارسية فى التعليم قبل الجامعى. وفى الجامعات تدرس بعض العلوم الشرعـية فى كل الكليات، وهذه تدرس بالعربيـّة.. أما فى «الحوزات» العلمـيـة (أى مؤسـسـات التعليم الإسـلامى التـقليـدية المقـابلة للأزهر مع بعض الخلافات الجوهرية) فإن التعليم كله بالعـربية. وبهذه اللغة المقدسة تدرس المناهج وتؤلف الكتب والأبحاث.. وكل مراجع التقليد (أى كل المجتهدين الكبار الذين يجرى

تقليدهم من مـئات الألوف من الأتباع المؤمنين) لغتـهم هى العربية، يفهـمونها فى الكلام الشـفهى أو عبـر القراءة وإن لم يحـسن بعضـهم النطق بها أو الكتـابة عن طريقها.. إن كل من تولى مواقع القيـادة فى الدولة الإسلامية منذ نجاح الثورة هم بهذا المعنى متعربون لغة، بدءاً من الإمام الخومينى عليه رحمة الله، ومروراً بالقائد الحالى للثورة (السيد خامنئى) وبرئيس الجمهورية (السيد رافسنجانى)، ورئيس مجلس الشورى (السـيد ناطق نورى) الذى يتوقع انتخابه لرئاسة الجـمهورية فى أبريل القادم.

وإذا كان الإسلام يضفى على اللغة العربيـة، هيبة وقداسة، وإذا كان التعليم فى الحـوزة يحظى الآن بذوره الاهتـمام والتـقديـر، وإذا كانت القـيـادات العليا تقـدم القدوة.. فإن هذا كله يؤدى إلى تقدم متسارع فى انتشار لغتنا داخل الأمة الإيرانية العريقة.. إنها عملية لاتكتمل إلا عبر أجيال، ولكنها بالتأكيد تتقدم بفضل الله.. ومن مؤشرات ذلك التـزايد الكبير فى أعداد من يحفظون القرآن كله أو بعـضه (مع فهم المعانى بالفارسية) حيث تسعى فى ذلك كليات مـتخصصة فى ١١ محافظة، إضافة إلى دور المؤسسات التعليمية الأخرى، كما ذكرت، وكذلك الصحف والإذاعة.

وأوضح من هذا فى الدلالة، أنه جـرت فى عـام ١٩٩٥ دورات ومـسابقـات فى إنشاد التـواشيح باللغـة العربيـة.. كانت المسابقـات فى كل المحافظات، وكـان عدد المشاركين يربو على نصف مليون إيرانى!!

إن هذا الانتشار للغة العربية يوثق ارتباط المشروع الإيرانى للنهضة بالمشروع العربى تحت راية الإسلام.. وإذا كـانت القيادة الإيرانية تدفع أمتهـا فى اتجاه اللغة العربية، فـإن هذا الموقف يتطلب دعما من الدول العربية، ومن مـصر بالذات، سواء أكان هذا باسـم الانتـماء الدينى، أم باسـم الانتمـاء الحضارى والتكامل الاقتـصادى والأمنى.. ولكننا نرى أن العكس هو ماحدث للأسف الشديد.

إن النهضة الثقافية فى إيران الإسلامية تشمل إقامة مكتبات عملاقة فى كل مكان (آخرها مثلا مكتبة مشهد التى توصف بأنها أحدث وأكبر مكتبة فى الشرق الأوسط). إنهم حريصون على تزويد كل هذه المكتبات بالمؤلفات المصرية، ولكنهم يمنعون من شرائها واستيرادها.. هل يعقل هذا؟! حتى لو كانت إيران -فى زعم أهل الحكم- زعيمة الإرهاب الدولى والإقليمى، فما علاقة ذلك بإقامة جسور للتفاهم الثقافى والحضارى بين الشعبين المصرى والإيرانى؟!

والأمر نفسه يقال عن تحفيظ القرآن وتلاوته. لقد ذكرت مدى الاهتمام بهذه المهمة المباركة، وأضيف هنا أن المقرئين المصريين يحتلون لدى علماء إيران وجمهورها مكانة عالمية خاصة. ولذا سعى المسئولون فى إيران إلى دعوة عدد من مقرئينا ليمتعوا شعبهم بتلاوة صحيحة للقرآن الكريم وبصوت عذب.. ولكن بعد موافقة الأزهر أصدرت سلطات سياسية اعتراضا فظا منع السفر.. وأسأل مرة أخرى: ماعلاقة تلاوة القرآن بالعداء السياسى مع إيران؟!

* * * * *

وإشارة إلى مدى تعلق قلوب الإيرانيين بمن يحفظون كتاب الله ويحسنون التلاوة، أذكر أننى لاحظت أن فضيلة الشيخ مصطفى إسماعيل عليه رحمة الله كان ذا معزة خاصة.. ففى زيارتى الأولى (١٩٨٩) سألنى مرافقى: كيف ودعتم فى مصر الشيخ مصطفى إسماعيل؟ وكم يوما امتد العزاء؟ وقد أصيب بغصة شديدة حين فهم منى أن الجنازة لم تكن بالمستوى الذى توقعه..

وامتداداً لهذا سمعت فى زيارتى الأخيرة أن زوجة السيد خامنئى دخلت عليه يوم وفاة فضيلة الشيخ مصطفى وقالت له بأسى: لقد وعدتنا بأن نزور القاهرة ونقابل الشيخ مصطفى إسماعيل وها هو الرجل قد مات دون أن تتاح لنا فرصة لقائه.. وقد قام السيد خامنئى بتهدئتها وقال: بإذن الله تتحسن الأحوال ونتمكن من زيارة القاهرة وزيارة أهل البيت فيها، وكذا نزور -إن شاء الله- قبر الشيخ مصطفى إسماعيل.

كيف نخمد فتنة الصراع بين الشيعة والسنة

إن عداء الاستكباريين للثورة الإسلامية الإيرانية أمر مشتهر ومفهوم الأسباب. وهم لم يقصروا فى التعبير عن هذا العداء منذ اليوم الأول لقيام الدولة، ومن أخطر ما استخدموه فى هذه الحرب كيد متصل لعزل إيران عن محيطها الإسلامى.. حاولوا ذلك من خلال ترويع عديد من الحكومات على أساس أن إيران ستصدر الثورة من أجل اقتلاعها.. وعلى مستوى الشعوب نفخوا فى عوامل الخلاف والفتنة، فقالو: إن الفرس بالضرورة ضد العرب، والخلاف يتأكد ويتعمق لأن هؤلاء فى أغلبهم شيعة بينما العرب من أهل السنة.. وصدرت الكتب التى تكفر عندنا أتباع المذهب الشيعى وتنشر حولهم أكثر الأكاذيب وقاحة.

وقد حقق المكر السيىء بعضا من النتائج المستهدفة من غير شك، ولكن مؤكد أن أغلب من أصابهم الضلال وقعوا فى مخطط الأعداء عن جهل وغفلة وليس عن سوء قصد ونية.

إن الخلاف بين مذهب أهل السنة والجماعة وبين أصحاب المذهب الشيعى هو خلاف واقع ولامحل لنكرانه. وقد عبر عن ذلك الرئيس هاشمى رافسنجانى حين قال «إن آيات القرآن الكريم توحى بأن تحقيق الوحدة الكاملة بين المسلمين أمر غير ممكن ومتعذر حتى قيام الساعة، ولكن هذا لايعنى أن نقصر فى بذل أقصى الجهود من أجل تقليل دواعى الفرقة، وتوسيع دائرة الاتفاق».. وأضاف رافسنجانى «إن مهمة العلماء فى هذا الشأن أصبحت أسهل لأننا نعيش فى عصر الاتصالات التى تيسر التبادل السريع للآراء والحوار.. وعلى العلماء أن يستشعروا حقيقة المخاطر التى تهدد الأمة الإسلامية الآن، فهذا يفتح العقول على ضرورة المعالجة للخلافات فى حجمها الصحيح بلا مبالغة، وحتى نكون بالتالى قادرين على تشكيل جبهة واحدة (رغم هذه الخلافات) ضد أعداء الأمة الإسلامية».

هذا الكلام المخلص والعميق سمعته كـذلك وبطريقة تلقائية أثناء اللقاء مع القائد آية الله على خامنئي، فـقد تكلم أمامـه وفد إندونيسى عن وضع الشيـعة فى بلده، وكان تعليقه: إياكم أن تتصوروا أن انتسابكم للمذهب الشيعى يعطيكم حق التفاخر والعلو.. وأياكم أن تتصوروا أن انتسابكم للشيـعة يبرر شق أمتكم.. فأمة الإسلام على اختلاف مذاهبها ينبـغى أن تسعى لمرضاة الله الواحد الأحد، وينبغى أن تكون يداً على من يعاديها.

ولكن من الواجب رغم هذا أن نقـر أن هناك شبـهات لابد مـن دفعهـا، فبـعض علمائنا يصـدق عن جد أن إخواننا من الشـيعة لايتقـيدون بالمصحف الذى نعـرفه والذى أنزله الله على رسوله (ص).. وبعضـهم يصدق أيضا أنهم ينكرون السنة.

وكل هذا افتراء صـريح لاينبغى لعلمائنا الأجـلاء أن يقعوا فيه.. فـقرآننا الكريم هو قرآنهم والسنة النبوية عـندنا (قولية وفعلية) هى السنة النبـوية عندهم. والفقه الشيعى (الجعفرى والزيدى) هو إنجاز فكرى عـبقرى مستمد من هذين المصدرين (القرآن والسنة)، ولذا فإن كـبار علماء السنة يعتبـرون الفقه الشيعى اجـتهادا فى إطار الشرع، والتعبد وفقا له مفتوح أمام المسلمين.

والبعض يقول: إن هذا الكلام الذى نسمعه الآن من أئمـة الشيعة المعاصرين عن الاعتـراف بالقرآن والسنة هو مجـرد ممارسة للتقـية (أى أنهم يقولون خـلاف ما يبطنون).. وهذا الكلام مـردود بالوقائع والحقـائق، فالالتزام الصـادق بالقرآن هو التزام قـديم قبل الثورة الإسـلامية الإيرانية، بـل قبل إنشاء جمـعية التـقريب بين المذاهب منذ ما يزيد على نصـف قرن، ويكفى أن أشير إلى تفـسير الميزان للعـلامة الطباطبائـى.. فهل كل هذا السفر العلمى الجليل بأجـزائه العشرين مجـرد «تقية»؟! والحـقيـقـة أن الكتب والنظريات الصـادرة منذ قـرون والتى أطلعت بنفـسى على بعضها تقوم على أسس فى الاجتهاد واضحة.. قد تختلف معها فى بعض نتائجها،

ولكن لا خلاف حول أنها تقوم على الأسس التى لايكون المسلم مسلماً بغير الإيمان بها.

* * * * *

من المؤكد أن هناك خلافا مع الشيعة حول مشروعية انتساب الدول الإسلامية السابقة إلى صحيح الإسلام (الأموية والعباسية والعثمانية).. ولكن هذا الخلاف تخفت حدته الآن، ومن ناحية أخرى فإن من فقهاء السنة من يثيرون كذلك علامات استفهام وتشكيك حول وضع الدول الإسلامية بعد عصر الراشدين.

أيضاً هناك خلاف حول عصمة الأئمة الاثنى عشر (حسب المذهب الجعفرى السائد فى إيران)، والحقيقة هنا أن الجانب الفقهى التاريخى فى هذا الخلاف أججه عبر القرون الصراع السياسى.. وكما أدى الخلاف السياسى فى بعض المراحل إلى تعميق الخلاف الفقهى بين أهل السنة، بحيث أصبحت صلاة المالكى أو الحنبلى مثلا لاتجوز خلف إمام حنفى (تابع لمذهب الدولة العثمانية)، فكذلك ابتعد الشيعة عن الصلاة خلف إمام سنى (والعكس أيضاً صحيح، أى ابتعد أهل السنة عن الصلاة خلف إمام شيعى).. وبتعبير آخر، فإن الخلاف المذهبى جرى تصعيده بحيث أصبح كأنه خلاف فى صلب العقيدة ويخرج صاحبه من الدين كله!

لقد هبطت الخلافات بين أتباع المذاهب السنية الأربعة إلى حجمها الصحيح، وأن للخلافات مع أتباع الاتجاهين الجعفرى والسنى أن ترجع إلى حجمها الصحيح هى الأخرى. وإذا كان الأزهر فى مصر صاحب المبادرة الأولى فى هذا الاتجاه فإننا نسأل الله أن يعود لمواصلة هذا الدور.. لقد كان فضيلة الشيخ شلتوت رائدا وأعقبه فضيلة الشيخ أبو زهرة وفضيلة المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود (عليهم جميعا رحمة من الله وبركة).. وكان فضيلة الشيخ محمد الغزالى يعمل فى هذا الاتجاه حتى آخر نفس فى حياته.. وكذلك شأن فضيلة الشيخ يوسف القرضاوى مد الله فى عمره ونفعنا بعلمه. والمرحوم الغزالى والأستاذ القرضاوى يتمتعان بتقدير عال

من علماء إيران وقادتها. وقد وصف د.محمد على -مدير مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية- بحث القرضاوى فى مؤتمر الرباط منذ ثلاثة أشهر حول التقريب بين المذاهب بأنه بحث بالغ الروعة، وتجرى ترجمته الآن للفارسية.

ود.محمد على آذر شب يجيد العربية إجادة تامة، وهو قريب من قائد الثورة الإسلامية آية الله سيد على خامنئى، وهو أيضا من المشرفين على معهد البحوث التقريبية فى مدينة قم، وهو المعهد الذى يرأسه حجة الإسلام محمد على تسخيرى الذى عرفناه فى القاهرة أثناء مؤتمر السكان (١٩٩٥) مدافعا صلبا عن وحدة المسلمين وعن أهمية العلاقات المصرية-الإيرانية.

يقول د.محمد على: إنهم أعادوا تصنيف الأحاديث النبوية ومقارنتها فى مراجع السنة والشيعة، وقد يسر هذا استخدامهم للكمبيوتر، وقال د. محمد على: إن النتائج كانت مذهلة وتفوق كل ما كان مقدراً فى السابق، فالأمور المشتركة فى المعتقدات والأخلاق كانت بنسبة ١٠٠٪ وكذلك فى الأمور السياسية والاجتماعية. أما فى الأحوال الشخصية فإن المشتركات كانت بنسبة ٨٥٪.. وحتى بالنسبة لعودة الإمام الغائب عند الشيعة، فإن أحاديث أهل السنة عن المهدى المنتظر تقترب كما يقول د.محمد من جوهر ما جاء عندهم.

* * * * *

وباختصار فإن جهود الشيعة فى إيران لاتنقطع من أجل نظرة جديدة للتاريخ، ومن أجل اجتهاد يضع حداً للغلوّ الذى ساد فى السابق فى ظل العزلة بين أصحاب المذاهب المختلفة.

لقد قابلت فى مدينة قم آية الله جعفر السبحانى، وهو يرأس «مؤسسة تعليماتى وتحقيقاتى إمام صادق عليه السلام» هذا اسمها بالفارسية وواضح أنه يعنى أنها مؤسسة تعليمية وبحثية، وهى مؤسسة متخصصة فى بحوث علم الكلام، وتابعة إداريا لحوزة قم.

وكتب آية الله السبحانى تبهرك فى عمقها، ولكن يعنينى فى السياق الحالى أنه أصدر تحت إشرافه الجزء الأول من كتاب «طبقات الفقهاء وتاريخ الفقه».. هذا الكتاب مؤلف بالعربية ويتابع الظهور التاريخى للفقهاء وأعمالهم بالترتيب حتى القرن الخامس. وقد قال لى: لا أكون فقيها إلا إذا درست تاريخ الفكر، أى تاريخ المعالجة لكل مسألة. وفى هذه الدراسة التاريخية لانسقط أحداً أيا كان رأينا فيه. وقد طالعت فعلا فهرس الجزء الأول وهو عن الصحابة والتابعين وفوجئت بأن اسم معاوية رضى الله عنه وارد فيه فى موضعه الصحيح، ودون أية أوصاف تبعد الحيدة.

وهذا جديد بالغ الدلالة من غير شك على المناهج التقليدية عند أهل الشيعة.

وكذلك أخبرنى د.كسائى ود.عالم زادة (كلية المعارف الإسلامية -جامعة طهران) أنهما شاركا فى إعداد دائرة معارف إسلامية هى الآن تحت الطبع.. وهذا العمل الكبير كتب فيه لدى كل مدخل عرض لمختلف الآراء والاجتهادات من فقهاء السنة والشيعة فى حيدة كاملة، على حد قولهما... وحتى لو كان فى هذا بعض المبالغة، فإن الاتجاه هنا أيضاً جديد، ومهم.. ولعل علماءنا ينحون بدورهم نحو هذا التقارب.

* * * * *

يقول قائد الثورة السيد خامنئى أثناء زيارتنا لإيران: «كل من يمكن دول الاستكبار منا يكون كمن حارب الإسلام يوم ظهوره ونزول آياته الإلهية».. ويقول: «منذ نجاح المشروع السياسى الإسلامى فى إيران تفجرت كوامن الحقد ضد الإسلام وقيمه من قبل الظالمين والمستبدين».

وأثناء زيارتى لإيران كان رئيس الجمهورية يصرح بدوره بأنه «لايمكن الوصول إلى المستوى الثقافى الرفيع إلا بالمزيد من التقرب للبارىء تعالى».. وكان

يقول أيضاً «إن المساجد معاقل للدفاع عن القيم الإسلامية الثورية وأماكن لبناء الإنسان ومعالجة أمراضه الروحية».

ماذا تحقق من هذه التوجيهات والشعارات؟ وإلى أى حد توحدت الرؤية العامة داخل الأمة الإيرانية الإسلامية؟

لابد من استمرار العرض لما رأينا وسمعنا فى المقال القادم إن شاء الله.

* * * * *

-٢-

في إيران الإسلامية يربون إنسانًا متدينًا يصمد في النزال ويندفع في البناء

- من يشهد الخلافات السياسية فى إيران يتصور أن نظامها سينهار ولكن ثبت أن الديمقراطية .. والانتخابات الحرة هى التى تدعم الاستقرار والتنمية
- الثقافة الإسلامية تنتشر بالتعليم والإعلام وبالفنون الرفيعة وبالقدوة الصالحة من قيادات الدولة
- الثقافة الإسلامية عندهم لا تتعارض مع الاعتزاز بالتراث الوطنى
- المرأة نراها فى كل المواقع .. ومن لا تتكسب بالعمل خارج البيت تشارك فى النشاط السياسى وتقديم الخدمات الاجتماعية

أيها القارىء الكريم: كل رمضان وأنت صائم قائم صابر.. ونسأل الله بحق هذا الشهر الفضيل أن يثبت أمتنا -فى كل الأصقاع والمواقع- على طريق الجهاد حتى نحرر القدس وكل أراضينا السليبة والمحتلة، وحتى نرفع راية «لا إله إلا الله» خفاقة فى العالمين.

ومن فضل الله علىّ أن رمضان يأتى هذا العام مصاحبا لسلسلة مقالاتى عن الجمهورية الإسلامية فى إيران.. فوسط الغبار والغيوم، ووسط نعيق المتخاذلين المستيئسين، أرجو أن تكون المقالات مبشرة بأن نصر الله قريب، على عكس ما يشيع أصحاب الإفك والضلال.

ماذا رأيت بعد ٨ سنوات بعين سائح عابر

كانت زيارتى الأولى لإيران منذ ثمانى سنوات، وإذا أردت أن أرصد -بعين سائح عابر- ما تغير خلال هذه السنوات، سألحظ اتساع العمران فى المدن التى زرتها، سألحظ المساكن الجديدة المتكاثرة. لقد عادت شوارع طهران تعج بالحيوية، وهى شوارع نظيفة.. ورغم الزيادة الملحوظة فى عدد السيارات، فإن حركة المرور منتظمة بفضل الكبارى العلوية التى أقيمت، وبفضل الصرامة فى تطبيق القواعد الضابطة.. لقد كانت زيارتى الأولى فى أعقاب الحرب العراقية-الإيرانية الطويلة، وكانت نتائج الاستنزاف الاقتصادى بادية فى نوع السلع المطروحة فى المحال، وفى زيارتى الأخيرة كانت الحركة التجارية نشطة، وكانت المحال عامرة.. إلا أن هذه الملاحظات الاقتصادية يمكن أن نشهد مثلها فى بلاد أخرى، بل مؤكد أن بعضا من الدول حققت فى مجال رفع مستوى المعيشة أكثر مما أنجزت إيران خلال السنوات الثمانى الماضية، ولكن ميزة إيران (أو معجزتها) أنها حققت ما حققته فى ظل حصار دولى لم يتوقف، وفى ظل تهديدات عسكرية لم تنقطع بعدوان

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٩٩٧/١/١٠

أمريكي-إسرائيلي.. وكذلك فإن جزءا كبيرًا من الجهد الإيراني ضاع في تعمير ما خربته حرب الخليج الأولى، وبالتالي فإن الزيادة الحقيقية للنتاج القومي الإجمالي كانت لابد من أن تكون محدودة نسبيا.

* * * * *

على أي حال، أرجو أن أتناول الجانب الاقتصادي في مقال قادم إن شاء الله، ولكنني ذكرت في الأسبوع الماضي أنني كنت أركز في زيارتي لإيران على الإنسان.. إن البشر هم صناع النهضة الحضارية، وحتى بمنظور التنمية الاقتصادية فإن الإنسان الذي أكرمه الله وخلقه عاملا ومفكرا مبدعا هو الفاعل الأول لهذه التنمية.. فماذا جرى للإنسان في إيران في ظل التربية الإسلامية؟

إذا رصدت ما تحقق في هذا الإطار -بعين سائح عابر- سأقول إن المنتجات الاستهلاكية التي أشرت إلى تكاثرها ووفرتها هي -في غالبيتها الساحقة- من إنتاج إيراني وتحت أسماء تجارية إيرانية، من الحافلات وسيارات الركوب إلى الأدوية والمأكولات والمشروبات والملابس، وهي بمواصفات جيدة ويعتز بها الناس تعبيرا عن الصمود في مواجهة الحصار الخارجي.. والإنتاج الإيراني تحيطه حملة إعلانية في الإعلام وفي لافتات الشوارع من كل نوع، وهي إعلانات مخرجة بطريقة فنية جذابة ولكن بدون الرقص والمسخرة اللذين نشهدهما في إعلاناتنا المصرية، وتمتد هذه الملاحظة إلى مراعاة الآداب العامة في الشوارع، فأنت لاترى في الشوارع أو النوادي أو محال العمل ما يؤذي عينك أو يجرح دينك.

إن المرأة الإيرانية تجدها في كل مكان: في الجامعات ومراكز البحوث، وفي الصحف وفي المصالح الحكومية ومواقع الإنتاج، ومن لاتتكسب بالعمل خارج البيت تشارك في العمل العام (في العمل السياسي وفي مجال الخدمات الأهلية) على أوسع نطاق.. ولكن كل هذه المشاركة والمخالطة مع الرجال تجري في إطار الآداب الشرعية.. لاحظت تسامحًا أكبر في زي المرأة (من حيث الألوان مثلا) ولكن

مع التزام الكل بالاحتشام.. أما الرجال (والمسئولون منهم بشكل خاص) فملابسهم بعيدة عن البهرجة، والتزام الزهد واضح.. وقد أصبح إطلاق اللحية قاعدة لغالبية الرجال، لم يتقرر الأمر بقانون، ولكن استراحت الغالبية لهذا التقليد فأصبح قاعدة، ولا أظن أن هذا الاتجاه يرتبط كلية بوازع دينى، أو برغبة فى تقليد العلماء، فجانب من التفسير يرجع إلى أن الإيرانى المعاصر أصبح حريصا على أن يكون ذا هيئة تميزه عن أهل الغرب، ولذا نرى فى السياق نفسه إقلاع الكل عن ارتداء رابطة العنق.

والحقيقة أن أول ما يلفت نظر الزائر لإيران، أن زى الرجال والنساء يختلف عما ألفه فى مدن العالم الأخرى. وهذا يعطى للشوارع منظرًا فريدًا، لاتراه إلا فى السودان.. وقد يشار هنا أيضا إلى السعودية، ولكن الفارق الكبير هو فى مكانة المرأة الاجتماعية التى تنعكس فى الزى (لايوجد نقاب) والفارق الآخر هو فى مخالطة الرجال فى الأنشطة المختلفة، فهذا الأمر كما نعلم تحرمه السعودية.

هذه المشاهد التى ترصدها عين السائح العابر فى إيران، تولدت من برامج تثقيفية وتربوية مكثفة، فكل إمكانات الدولة مسخرة لتعميق التنشئة الإسلامية، وللحض على مكارم الأخلاق.. ويبدأ هذا بالتدخل المباشر من قادة الدولة من حيث القدوة التى يقدمونها، ومن حيث الأحاديث التى يلقونها.. إن صلاة الجمعة فى الجمهورية الإسلامية مشهد لاينبغى أن يفوت أى زائر، فهى لاتؤدى فى مساجد متفرقة داخل المدينة، ولكنها تتحول إلى مناسبة يحتشد فيها الكل. وخطيب الجمعة يكون من العلماء الكبار، وفى العاصمة قد يكون الخطيب رئيس الجمهورية أو رئيس الهيئة القضائية أو رئيس مجلس الشورى.. ولذا فإن خطبة الجمعة تربط الشق التعبدى الذى يرقق القلوب ببحث أمور الساعة وتحدياتها، فخطيب الجمعة يحلل الموقف السياسى، وإن كان من المسئولين فإنه يشرح القرارات الكبرى ودواعيها أمام جمهور المصلين.. وحين صليت الجمعة فى طهران قبيل عودتى،

غرقت فى بحر عشرات الألوف الذين تجمعوا كالعادة فى الساحة الفسيحة لجامعة طهران، وتحدث يومـها إمام المصلين (آية الله كاشـانى) فتضمنت الخطبـة كالعادة كلاما كـبيرا. قال كاشانى: إنه ينبـغى للأمم الإسلامية أن تواجه جـرائم الصهاينة وتتحـدى ضغوط الولايات المتـحدة.. وقال: إن تزايد مـعدل الجرائم التى ترتكبـها قوى الاسـتكبار العالمى، يقـابله تصاعد المقاومـة من الشعوب التى أصـبحت تدرك فساد الحضارة الغربية المادية السائدة.. إلخ.. إلخ.

وتدخل فى مناهج التـربية للوجـدان الاحتفـالات القومـية الكبـيرة بالمناسـبات الدينية مثل المولد النبـوى.. وقد شاهدت أثناء زيارتى احتفـالات الإسراء والمعراج.. إنها احـتفالات للكل وفى كل مـكان وليست منحصـرة فى مسجـد معين أو زاوية، ويخطب فيها قائـد الثورة ومرشدها ليشرح مضامين المناسبـة وما يشتق منها فى عصرنا الراهن.

ولكن التنشئة والتوعية لاتقتصر طبعا على هذه المناسبات والأحاديث المباشرة.. فالـتعليم بدوره يلعب دورًا مـهمـا، ولكن لن أسـتطرد فى تفاصـيل هذا لأننى هنا بصدد ما أسجله بعين سائح وليس ما أستخلصه من الدراسة المتعمقة.. ولكن بعين السائح العابر، لابد من تسـجيل ما تشاهده فى السينمـا والتلفزيون. من المؤكد أن الجهل بالفـارسية يمنع السـائح من فهم كل ما يراه، ولكن من المؤكـد كذلك أن هذا الجهل لم يمنعنى مـن ملاحظة التقـدم المذهل الذى حدث خلال السنوات الماضـية.. أثناء زيارتى الأولى للجمـهورية الإسلامية، كـان الإمام الخومينى عليـه رحمة الله يصدر بالكاد فتواه التى أباحت استخدام الآلات الموسيقية، والتى أباحت أيضا لعب الشطرنج، ولا أظن أن هذه الفـتوى الميـسرة كانت اكـتشـافًا جديدًا لـلإمام الراحل، ولكنه من موقع المسئول والمرجع الأعلى رأى من الملاءمة أن يؤجل إعلان هذا الرأى حتى أيامـه الأخيرة، لأنه كان يـعلم أن معارضة المتـزمتين كانت قـوية تهدد بشق

الصف (أثناء زيارتى الأولى كـان احتجـاج عديد من العلمـاء عاليا ولم تـقض عليه فتوى الإمام الخومينى).

الصورة الآن تخـتلف، فشـرعيـة الاستمـتاع بالموسـيقى والغناء أصـبحت من المسلمات، وكذلك اشـتراك النساء فى التمـثيل.. والمستوى الفنى للمسـرح ومسرح العرائس أصبح رفيـعا، ومستوى الأفلام الإيرانية والمسلسـلات التلفزيونية أصبح مضرب الأمـثال فى المسابقات الدوليـة. إن الموضوعات الإسلامـية فى هذه الأفلام والمسلسلات لاتقتصر على الموضوعات التاريخية، ولاتقوم على «الزعيق» والمواعظ المباشـرة (كما هو الحـال عندنا)، فالأفلام والمسـلسلات الإسلامـية هناك فن بحق وحقيق، ينشر القيم الإنسانية الفاضلة وينتقد عيوب المجتمع بتسلل غير مباشر إلى عقل المشـاهد وقلبه، من خلال قـصة جمـيلة وسيناريو رائع، ومن خـلال تصوير وكادرات مذهلة ومن خـلال تمثيل راق.. ومن خلال إخراج قـد نال الجوائز الدولية من أعداء الإسلام!

فى مناسبة الاجتمـاع الأخير للمجلس الإسلامى للثورة الثقـافية، قال القائد آية الله على خامـينئى: إن التطور الثقافى هو صـاحب الأولوية الأولى فى إيران، وقال إنه يؤمن إيمانا جازما «بأن قوة أية أمة تعتمد على قوة ثقافتها، وبالتالى فإن تنمية الثقـافة الإسلامـية تعتـبر ضرورة من أجـل حماية الاسـتقلال، ومن أجل تحـقيق الاعتمـاد على النفس وتحقيق الرفاهية للشـعب، ومن أجل تعميق الإيمان فى قلوب الجماهير لتندفع فى بناء الحضارة الإسلامية العظمى».

ويجب أن أسجل أن الحركة الثقافية فى إيران لاترى تعارضًا بين إعلاء الالتزام الإسلامى والاعتـزاز بالأمة الفارسية وتاريخـها (بدون عصبية جـاهلية). فالإبداع الفكرى والثقافى لهذه الأمة إبداع عريـق، قبل الإسلام وبعده، وهم حريصـون على هذا التراث المتصل.. حين زرت مدينة مشهد كان طبيعيا أن نتجه إلى مسجد ومقام الإمام الرضا -رضى الله عنه- لـقراءة الفاتحة والصلاة، ولم تكن هناك غـضاضة

فى أن يصحبنا المرافقون بعد هذه الزيارة إلى قبر شاعر الفرس الأكبر (أبو القاسم فردوسى الطوسى) صاحب الشاهنامة.. وفى قلب طهران رأيت فى أحد الميادين رموزا تحيى الفردوس أيضا وتحيى من بعده الشعراء سعدى، وحافظ الشيرازى، وعمر الخيام، وعارف القزوينى (توفى منذ ٣٠٠ سنة).

وهذا الاعتزاز بإنجازات التاريخ الوطنى تلمحه أيضا فى أسماء الشوارع.. فهى تحمل رموزا إسلامية إلى جانب رموز وطنية.. الفندق الذى نزلت فيه كان فى شارع (الدكتور حسين فاطمى) وزير الخارجية فى عهد د.مصدق قائد معركة تأميم البترول عام ١٩٥٠، والذى قتله الشاه.. وعلى مقربة من شارعنا هذا كان شارع على شريعتى المفكر الإسلامى الكبير الذى قتله الشاه أيضا.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

إن قادة الجمهورية الإسلامية فخورون بما أنجزوه فى هذا الاتجاه، ولكن رغم النهضة الصحفية والأدبية والفنية البادية من المؤكد أن المطلوب أكثر.. وحتى فى مجال الإنتاج السينمائى والتلفزيونى فإن الإنتاج الممتاز الذى أشرت إليه مازال محدودًا من حيث العدد.. ورغم أن الدولة لاتبخل فى تقديم الاعتمادات والتسهيلات، فإن المسألة تحتاج بالضرورة إلى وقت أطول للإنضاج، وفى إطار الحوار النقدى الذى ينتشر فى جو إيران شاملا كل شىء، فإن قيادات الثورة والدولة لاتنفك تنقد أغلب ما يقدم (خاصة فى مجال الفنون)، فمرشد الثورة حذر السينمائيين من الانخداع فى مغزى الجوائز العالمية.. إذ رأى أنها فى بعض الأحيان تكون بهدف حفزهم على زيادة النبرة المعارضة لما يجرى فى إيران من خلال المبالغة فى وصف السلبيات، والرئيس رافسنجانى سمعته يتكلم فى هذا الاتجاه أيضا.. ولكن كل هذا كان لا يخرج عن إطار النصح الرقيق دون تعرض لحرية التعبير أو خفض الاعتمادات المدرجة.



إن هذا الذى سجلته بعين سائح عابر، يعبر عن جو للتنشئة الاجتماعية يخالف تماما ما يحيط بأبناء شعبنا، ومن الطبيعى أن يخلق هذا فى إيران أمة قادرة على الجهاد.. فى الحرب وفى البناء.

ما شاهدته بعين سائح أيضا فى الخلافات السياسية الحادة

وبعين السائح العابر، أسجل أيضا أننى عدت من زيارتى الأولى لإيران (١٩٨٩) قلقا أشد القلق على مستقبل الجمهورية الإسلامية، فقد شهدت أثناء هذه الزيارة بوادر أزمة آية الله منتظرى التى انتهت بقبول استقالته. والسيد منتظرى فقيه متمكن له تاريخ طويل فى الجهاد قبل الثورة واختاره الإمام الخومينى ليكون خليفة له بعد وفاته، ولذا تصور المراقبون أيامها (وأنا منهم) أن ابتعاده من علامات تصدع وشيك قد لايحتمله بناء الدولة بعد رحيل الإمام الخومينى.

وقد سمعت أيام زيارتى الأولى عن أزمة بين رئيس الجمهورية أنذاك (السيد على خامينئى) ورئيس مجلس الوزراء (ميرحسين موسوى)، وكذلك سمعت عن الخلاف بين موسوى وعدد من وزرائه، وكذلك كانت الخلافات لاتتوقف بين الحكومة ومجلس الشورى (البرلمان) من ناحية وبين مجلس صيانة الدستور من ناحية أخرى.. وقد سمعت أيامها وقرأت عن احتمالات ترشيح السيد هاشمى رافسنجانى فى انتخابات رئاسة الجمهورية القادمة، وعن اشتراطه تعديل الدستور لإلغاء منصب رئيس الوزراء، بحيث يصبح رئيس الجمهورية هو الرئيس المباشر للجهاز التنفيذى.. هذه الخلافات كانت تنعكس فى الصحف وفى مناقشاتى مع كل من قابلتهم من المسئولين والمرافقين، إذ كانوا جميعا يتكلمون بصراحة عن هذه الخلافات وعن رأيهم فيها وفى أصحابها.. على نحو لم يعتده مثلى فى بلادنا العربية.. لقد أصابنى هذا بالدهشة.. وحين لاحظت أن الإمام الخومينى كان مضطرًا للتدخل بانتظام لفض النزاع بين مراكز السلطة وتخفيف حدة الخلاف،

ظننت أنه وحده الذى يمنع الانهيار، فماذا بعد انتقاله إلى رحاب الله؟ هذا السؤال جعل دهشتى ممزوجة كما ذكرت بالقلق والانزعاج.

فى هذه المرة رأيت ما رأيته فى المرة السابقة، فبعين سائح يشاهد الأمور بلا تعمق، رأيت الاستعداد لانتخابات جديدة لرئيس الجمهورية (فى أبريل القادم)، والتزاما بنص الدستور أصبح واضحا أن السيد رافسنجانى لن يرشح لفترة رئاسية ثالثة، فمن يخلفه؟ لقد تنافست فى الانتخابات الأخيرة لمجلس الشورى (مارس ١٩٩٦) اتجاهات مختلفة، وهذا التنافس الحاد ينعكس بشكل أو آخر فى انتخابات الرئاسة المقبلة، والأسئلة فى هذا الشأن تتدافع من كل ناحية، والتعليقات حول المرشحين المتوقعين صريحة. هل يرشح موسوى نفسه؟ هل حبيبى (النائب الأول حاليا لرئيس الجمهورية)؟ وهل هناك ما يشبه الحزب الخاص للرئيس رافسنجانى؟ وهل السياسات الحالية لرافسنجانى تختلف عن سياسة ناطق نورى الرئيس الحالى لمجلس الشورى وصاحب الاحتمال الأكبر للنجاح فى انتخابات الرئاسة المقبلة؟ فى كل هذا تسمع اجتهادات مختلفة وانتقادات لهذا الفريق أو ذاك.. وحين قابلت السيد ناطق نورى (مع أخى الأستاذ أحمد السيوفى) قال لى أحد الحاضرين ببساطة وبدون حرج أو حذر: «ألم تلحظ أن الرجل يتكلم بثقة من اعتبر رئاسته للجمهورية أصبحت أمرًا مفروغا منه؟ لقد أدهشتنى طريقته فى الكلام».. هذا ما قاله لى مسئول إيرانى بعد اللقاء.

* * * * *

كما قلت، فإن أصداء معركة البرلمان الأخيرة مازالت حية فى الصحف، والانقسام فى الرأى حول كثير من القضايا والأشخاص يتوالى النشر عنه، ولكننى أخذت العظة من تجربة الزيارة السابقة، وبالتالى فإننى لا أعود هذه المرة من إيران محملا بالإشفاق والقلق، وإن كنت محتفظا بالدهشة الممزوجة هذه المرة بالإعجاب، فهذه الحيوية هى مصدر الاستقرار والتنمية المطردة الناجحة.. وثابت الآن أن

العلاقات المؤسسية الراسخة هى التى تضمن تماسك الأمة والدولة رغم شدة التفاعلات وخطورة التحديات.. ليس الاستقرار مربوطا بهذا القائد أو ذاك، فقدمات الإمام الخومينى بكل هيبته ووزنه التاريخى.. ومع ذلك فإن الدولة بكل أجهزتها تواصل العمل، بل تعمل اليوم بخبرة أعلى وانتظام أرقى.

المؤسسات قوية وتمنع أى انفراد فى إصدار القرارات

لامجال للقلق إذن.. وبدلا من القلق أن لنا أن نتخلى عن النظر بعين السائح العابر لندرس عن قرب وفى حدود ما يسمح المقام، كيف يعمل النظام السياسى فى إيران؟

بعد نجاح الثورة كان التفاف الجماهير حول القيادة الإسلامية للثورة على نحو لم يشهده التاريخ الحديث فى أية ثورة، ومع ذلك أصر الإمام الخومينى على طرح مبدأ قيام جمهورية إسلامية للاستفتاء الشعبى العام، ووسط الحماس العارم وافق ٩٩,٥٪ من المشاركين فى الاستفتاء على إقامة جمهورية إسلامية تحل محل الملكية.. وهذه النسبة المذهلة لها سمعة سيئة فى بلادنا، ولكنها فى إيران لم تكن موضع شك أو طعن من أحد، داخل إيران أو خارجها.

وقد أسرعت الدولة الجديدة فى وضع دستور يحدد الأهداف والسلطات، (اللجنة الواضعة للدستور كانت بالانتخاب ومشروع الدستور أقر فى استفتاء عام).. وبدون تفصيل فإن قمة النظام يحتلها القائد (أو ما يسمى فى الفقه السياسى الإيرانى المعاصر ولى الفقيه)، وبعده يأتى رئيس الجمهورية، وهناك مجلس الشورى الإسلامى (البرلمان -٢٧٠ عضوا).. مجلس الشورى بالانتخاب المباشر طبعا، وكذلك رئيس الجمهورية (وهو قابل للعزل)، والقائد المرشد يأتى أيضا بالانتخاب من مجلس الخبراء (٣٠٠ عضو) الذى ينتخب كل ست سنوات لتقويم المسيرة القيادية لولى الفقيه ويجوز له أن يعزله إن ثبت عجزه أو تقصيره.. وولى الفقيه ليس شخصا بالمناسبة، فولى الفقيه مؤسسة تطورت كثيرا فى ظل أية

الله على خامينئى. وقد حدد الدستور الإيرانى صلاحيات هذه المؤسسة بوضوح وعلى نحو يجعلها بالفعل أعلى سلطة فى تقرير السياسات العامة التى تتحرك فى إطارها باقى المؤسسات.

و.. لا أريد أن أستطرد بعد ذلك إلى المبادىء التى جاءت فى الدستور والقوانين لتضمن استقلال السلطة القضائية، ولا أريد كذلك أن أستطرد إلى طبيعة التشكيل للمجلس الأعلى للأمن القومى والتى تضمن ولاء القوات المسلحة للقيادة السياسية وعلى رأسها ولى الفقيه.. لا أريد أن أستطرد فى هذا، فخلاصة ما يهمنى هو أن الدولة هناك هى دولة مؤسسات فعلية، والقرارات هناك لاتصدر بواسطة فرد أيا كان موقعه، فالقرارات لاتصدر إلا من خلال المؤسسات المسئولة، والشعب دائما فى وضع المشارك والمتابع والمحاسب.. والمؤشر الواضح فى هذا نراه فى الانتخابات العامة.

* * * * *

فى انتخابات مارس من العام الماضى لمجلس الشورى الإسلامى، كان عدد المرشحين ٢٩٤٦ يتنافسون على ٢٧٠ مقعدا (منهم ١٧٩ امرأة). وكان هذا العدد ضعف عدد المرشحين فى الدورة الانتخابية السابقة، وكما تضاعف عدد المرشحين، فإن نسبة المشاركين فى الإدلاء بالأصوات كانت كذلك نسبة قياسية فى تاريخ الجمهورية الإسلامية، بل كانت نسبة قياسية بالمقارنة مع أية دولة أخرى فى العالم، فنسبة المشاركين بلغت ٨٠٪ من عدد الناخبين.. ولذا اضطروا إلى مد اليوم الانتخابى إلى الساعة الثامنة مساء وكذلك إلى إحضار صناديق إضافية فى عديد من اللجان لمواجهة هذا السيل المتدفق.

إن وزارة الداخلية هناك هى الجهاز المنظم المنفذ، ولكن الإشراف والمتابعة يجريها مجلس الرقابة الدستورية.. وقد شهدت الانتخابات كما ذكرنا تنافسا حاميا بين اتجاهات سياسية متباينة، وجرى الحوار فى وسائل الإعلام بين هذه

الاتجاهات وحول ضمانات النزاهة والتكافؤ بين المرشحين.. وأسفرت النتائج عن حصول مرشحى «جامعة روحانيت» على غالبية المجلس (أى رابطة العلماء المجاهدين التى تنعت بالمحافظة) بدلا من «مجمع روحانيون» (أى تجمع العلماء المجاهدين الذى يوصف باليسارية)، وكان صاحب الأغلبية فى المجلس السابق.. ولكن يجمع الكل (الناجحون والراسبون) على أن الانتخابات كانت حرة ١٠٠٪.. ولولا هذا لما كان الاستقرار ولما كانت المشاركة الشعبية غير المسبوقة.

* * * * *

ولكن: هل هذه الاتجاهات السياسية فى إيران تعتبر أحزابا بالمعنى التقليدى؟ وما هى الآليات التى تضمن وحدة النظام رغم حدة الصراع؟

أظن أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الشرح فى مقال قادم بإذن الله.

* * * * *

—٣—

القيادة الإيرانية تحظى بقبول عام لعلمها وشجاعتها . . وأيضا لزهدها

■ ٨ أسباب تمنع تصدع النظام الإيرانى رغم حدة الخلافات

■ وحدة الأمة حول حكامها الإسلاميين فريضة . .
ولكن لها شروط

■ عالم غربى يقول: إيران تتوسع فعلا فى الديمقراطية . .
وهذا يؤكد ابتعادها عن الإسلام!

ماذا جرى للمجتمع وأفراده (للبشر) فى إطار الثورة الإسلامية ودولتها؟ هذا ما ركزت عليه بصرى وبصيرتى أثناء زيارتى الأخيرة لإيران.. فالأمة المؤمنة المتدينة هى فى التحليل الأخير صانعة النهضة وهدفها.

ومفروض أن الدور السياسى للدولة (فى أى مجتمع) يحقق التنسيق بين أوجه الأنشطة المختلفة حتى تأتى متوازنة متكاملة.. وإذا كان هذا قانونا عاما لكل المجتمعات، فإنه بالتالى قانون يحكم المجتمعات الإسلامية، ومن هنا كان قيام الدولة الإسلامية فى مجتمعاتنا فرضا دينيا، ولا يمكن أن يطبق شرع الله (بمعناه الكامل) إلا بها. فالدولة الإسلامية ضرورة لتحقيق التناسق بين التحركات الخارجية و ما يجرى بناؤه فى الداخل خدمة للإسلام والمسلمين، والدولة الإسلامية ضرورة لتحقيق التكامل والتوازن بين الأنشطة التربوية (فى الأسرة والإعلام والثقافة والتعليم) وبين الأنشطة الاقتصادية والدفاعية.. وداخل الأنشطة الاقتصادية فإنها تحقق التوازن والتكامل بين الأفرع المختلفة للزراعة والصناعة والخدمات تعظيما للاستقلال والاعتماد على النفس من ناحية، وضمانا لعدالة التوزيع بين فئات الشعب المختلفة من ناحية أخرى.. إلخ.

إن هذا الدور السياسى للدولة الإسلامية هو ذروة الإعداد للبشر وذروة الاستخدام الواعى لهم، إطلاقا لطاقاتهم الربانية بطريقة منظمة.. وإذا كان القيام بهذا الدور يتطلب فيمن يحملون الأمانة قوة وإخلاصا، فإنه يتطلب كذلك قواعد صارمة تضمن مشاركة الكل فى الرأى والقرار، وتضمن منع الاستبداد.

الدولة الإسلامية قوية بعدلها وليس بالبطش والاستبداد

إن الدولة الإسلامية هى بالضرورة دولة قوية.. ولكن القوة غير الاستبداد، فهى تعنى عندنا كما عند كل دولة صالحة ورشيدة (مسلمة أو غير مسلمة) القدرة على

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٧/١/١٩٩٧

فرض سياساتها وقوانينها على الجميع، وعلى الفئات القوية قبل الفئات الضعيفة.. وبهذا المعيار فإن كثيرا من الدول المستبدة فى منطقتنا هى فى الحقيقة دول ضعيفة وهشة، فهى عاجزة عن فرض سياسات عامة خضوعا لهذا الفريق أو ذاك من الأقوياء أصحاب المصالح الخاصة.

إن الدولة الإسلامية (شرعا وبالضرورة) دولة قوية، بل هى أقوى الدول، لأن الالتزام بوحدة الصف وبطاعة القرارات والقوانين ليس مجرد التزام دستورى، ولكنه جزء من العقيدة الدينية للمواطنين وأهل الحكم معا. ولكن شرط هذا الالتزام المتبادل والمنشىء لدولة قوية هو أن أهل الحكم فى الدولة الإسلامية لا ينفردون بحق إصدار القرارات... فهم قائمون عليها بعد أوسع المناقشات والمدارسات، واستبداد الحكام ممنوع شرعا حتى لو حاولوا ممارسته بزعم الإصلاح.

إلا أن منع الاستبداد لا يتحقق فقط بمواد فى الدستور، فهذه المواد يمكن أن تتحول إلى مجرد كلام على ورق إذا لم تكن صلاحيات أهل الحكم مقيدة فى الواقع الفعلى على نحو يمنعهم من الاستبداد إن أرادوه.. فتنظيم المؤسسات الاجتماعية والسياسية وتنظيم النشاط الاقتصادى ينبغى أن يكون على نحو يمنع أهل الحكم من التحكم فى الرقاب أو فى الأرزاق.

إن منع البيروقراطية وأجهزة الأمن من تكبيل حرية التعبير والنقد، ومنع البيروقراطية من خنق حرية الناس فى الكسب وإقامة المشروعات (أى توسيع المجتمع المدنى وترسيخه) هو الذى ينشىء فى الواقع الفعلى موانع فى وجه أية نية للاستبداد.. فالناس إن هم أمنوا على حقوقهم الإنسانية قادرون على الاعتراض، وهم بقوتهم المنظمة قادرون كذلك على ممارسة حقهم الدستورى فى عزل الحكام إن هم انحرفوا أو عجزوا عن أداء وظائفهم بالكفاءة المطلوبة.

* * * * *

إن وحدة الأمة الإسلامية حول حكامها تقوم على كل هذه الركائز المتكاملة.. وهذا يحقق أقوى دولة فى مواجهة الأعداء المستكبرين، ولبناء حضارة المؤمنين الجديدة.

وقد ذكرت فى الأسبوع الماضى أن تجربة الجمهورية الإسلامية فى إيران تمثلت هذه المبادىء والمفاهيم، فى دستورها وممارساتها.. ومؤكد أن المؤمرات الخارجية فرضت قيوداً، ولكن وضح من عرضنا أن مؤسسات فعلية قد قامت يوازن بعضها بعضا، ويحاسب بعضها بعضا، والشعب من وراء كل ذلك مرجع أخير فى كل الأمور، ويعبر عن تدخله بشكل حاسم عبر انتخابات واستفتاءات حرة..

مفكر غربى معادٍ للثورة الإسلامية يؤيد تحليلنا!

وأود أن أسجل هنا أننى لا أنفرد بهذا التقييم وبسبب تحيز لا أنكره إلى التجارب الإسلامية المجاهدة.. فسامى زبيدة (صاحب التحيز المغاير والمضاد) وصل فى دراساته إلى النتيجة نفسها.. وسامى زبيدة (أستاذ علم الاجتماع فى جامعة لندن) هو من أصل عراقى ماركسى المنهج رافض لنظام الحكم فى العراق، ولدعوة العروبة ولصحوة الإسلام والمسلمين، ومن هذا المنطلق الرافض والمعادى ركز عمله البحثى طوال سنوات على نتائج الثورة الإسلامية فى إيران، ولكنه اضطر إلى التسليم بعدد من الحقائق أدهشه، فقد لاحظ وسجل موقف الإمام الخومينى (عليه رحمة الله) من «ولاية الفقيه» وما ارتبط به بعد الثورة فى دستور الجمهورية الإسلامية وبرلمانها.. (كان هذا فى كتابه: الإسلام، الدولة، والمجتمع)، وقد اعتبر زبيدة هذه الملاحظات عن التطورات الايجابية «للديمقراطية»، دليلا على ابتعاد إيران عن الإسلام!

وقد استطرد فى هذا الاتجاه بشكل أشد فى دراسة أخيرة (١٩٩٦) كان عنوانها «إلى أى حد نجحت الجمهورية الإسلامية فى أسلمة إيران؟».. إذ تصور زبيدة أن الدستور تضمن ازدواجية أو مفارقة حين اعترف بالمرجعية الإلهية رغم اعترافه فى

الوقت نفسه بسلطة الشعب.. ولو كان يفهم الإسلام لعلم أن سلطة الشعب فى الدستور الإيرانى هى فى إطار شرع الله فلا تناقض.. وقد سجل زبيدة أن صلاحيات الشعب تجسدت فى برلمان حقيقى وفى حكومة حقيقية تخضع لحساب البرلمان.. ثم فى مؤسسات أخرى تعلو الحكومة والبرلمان.. وأشهد أنه شرح كل هذا بشكل منصف، وشرح أيضا كيف برزت اتجاهات سياسية متنافسة أو متدافعة، وقال فى نهاية دراسته: «إن الفارق المهم بين إيران الإسلامية وبين جيرانها فى الشرق الأوسط يظهر فى الصراع المتصل الذى تشنه القوى المتنافسة داخل مجلس الشورى (البرلمان) وفى مجالات العمل العام الأخرى.. وبين أعضاء الحكومة أو فى المؤسسات السياسية الدينية».. وأضاف أن «الجانب الإيجابى فى هذه الظاهرة يتمثل فى منعها لأية قوة أو مركز احتكارالسلطة، وفى إطلاقها لدرجة من التعددية فى الأفكار السياسية والاجتماعية -الثقافية».

إلا أن زبيدة له تصور ثابت عن الدولة الإسلامية، فهى عنده دولة لا تعترف بالوطن وشعبه، وهى دولة استبدادية بالضرورة والخلاف مع قادتها يعتبر كفرا يستحق القتل، وكل الملاحظات التى سجلها عن الدولة الإيرانية لم تجعله يكتشف أن فهمه للإسلام ودولته فهم شاذ وقاصر، بل وصل فى دراسته الأخيرة إلى نفس ما وصل إليه فى دراسته الأولى، فالجمهورية الإيرانية عنده قد خرجت على الإسلام ومبادئه فى الحكم، منحازة إلى المفاهيم الليبرالية والعلمانية وإن أخفت ذلك تحت شعارات إسلامية!

ولكنه رغم هذا الاستنتاج الذى يصر عليه، فإنه يعترف فى دراسته بأن الإسلام يتغلغل فى كل المؤسسات ليشكل الدافع للناس فى الحركة، وهو يعترف بأن الحجج الدينية تسود كل الخطاب السياسى، وتمثل الأساس فى تنافس الفرق والفئات المتدافعة، وهو يعترف بأن الورع ودرجة العلم الدينى تمثل معيارا أساسيا فى اختيار القادة، وهو يعترف أيضا أن هذا النمط المتميز من القادة ومن الخطاب

السياسى «يجعل الحكومة الإيرانية وسياساتها أمرا ذا طبيعة خاصة ولا مثيل له».. ولكن كل هذا لم يجعله يدرى أن أسلوب الحكم فى إيران «ذا الطبيعة الخاصة» ليس مستعارا من الغرب العلمانى ولكنه مشتق من عقيدته.. من الإسلام.

حقا إن التحيز المريض يغشى العقول والقلوب!

لماذا لا يتصدع النظام بسبب الخلافات

فى نهاية مقالى السابق تساءلت: ماذا عن مستقبل الخلافات السياسية فى إيران؟ وماذا يمنع تصدع النظام بسبب هذه الخلافات؟

وبالنسبة للسؤال الأول فإن الخلافات تشمل فى الحقيقة كل البنود التى تقوم عليها سياسة الدولة: من السياسة الخارجية وأولوياتها إلى مناهج التنمية الاقتصادية والموقف من عدالة التوزيع للثروات والدخول.. وقد قرأت للرئيس رافسنجانى أنه يتوقع أن يتحول أصحاب هذه الاتجاهات المختلفة إلى أحزاب سياسية، ولكنه قدر أنها إن قامت- ستكون أحزابا من نوع خاص تخالف فى تقاليدها وأساليب تنافسها ما يعرفه العالم الغربى.. ولا أعتقد أن فى وسع مثلى أن يدلى بحكم حول المسار المحدد المتوقع، إذ لا أملك قدرا مناسبا من العلم بالأوضاع الإيرانية، ولكن القدر المتيقن عندى يجعلنى أقول: إن المنهج الإسلامى سيجعل الحيوية الاجتماعية والسياسية التى نراها الآن تتواصل بإذن الله وتتصاعد بالأشكال المناسبة، فالمنهج الإسلامى قائم على سنة ربانية تقول: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض».. سنة التدافع ضرورة وإن كانت داخل الأمة الإسلامية تدافعا منظما.

هذا عن التساؤل الأول، أما التساؤل الثانى: لماذا وكيف لم يتصدع النظام بسبب الخلافات؟ فقد حرصت من أجل الحصول على إجابة، على مناقشة كل من قابلته من العلماء والمفكرين والسياسيين. وخلاصة ما سمعت هى التالى:

(١) التربيـة الإسلاميـة لمجموع الأمـة هى الضمان الأول لتـماسك النظام الإيرانى واستـقراره، فـهذه التـربية بعـباداتهـا وأخلاقهـا تجعل الناس فـرحين بأنهم يعيشون فى مـجتمع نظيف وفى ظل نظام يحضه على التعـبد وعلى الاقتراب من المثال الذى يؤمـن به.. ورغم كل الابتلاءات التى جرت علـى الناس، فإنهم يصبـرون إيمانا بأنهم أصحـاب رسالة مـقدسة، وبأنهم سـيكونون خيـر أمة أخـرجت للناس إن هـم ثبـتـوا.. هذا الإيمان يمنع الخـروج علـى النظام الذى اشتاقت جماهير الأمة إليه.. مهما تباينت الآراء والاجتهادات.

(٢) ومادام الإطار المعتمد هو شريعة الإسلام فإن الخلافات التى نتحدث عنها وعن انتشارها حول كل النقاط هى خلافات فى الحقيقة ذات عمق محدود. فإن كان الاختـلاف حول السيـاسة الخارجـية، فإنه خلاف فـى إطار التزام الكل بدعم المشروع الإسلامى وبالتالى فإن الخلاف لا يمتد إلى المحافظة على الاستقلال، وإلى مواجهة أمريكا باعتبارها «الشـيطان الأكبر» المهدد لهذا الاستقلال.. وإذا كان هناك تعارض حول المنهج الإسلامى فى الاقتصاد فإن مثل هذا التعارض يظل محكوما بالوسطية الإسلامـية، فليس هناك من يتكلم عن السوق السائبة البـعيـدة عن أى توجـيـه للدولة، وليس هناك فى المقـابل من يطلب السـيطرة الشاملة للدولة.. فـالخلاف بين الفرقاء هو فى إطار اقـتصاد تنافسى تـوجهه الدولة، وهو بالتالى خـلاف حول درجة الحرية ودرجة التـدخل الذى تقوم به الدولة.. وكذلك الأمـر حين يدور الجدل حـول العدالة الاجتـماعيـة.. ففى إطار الإسلام وثورته لن تجد من يتكلم عن جواز سحق الفقراء والمستضعفين باسم التنميـة.. فالتنمية عند الجـميع فى خدمة الشـعب، ومصالح الشعـب وحقوق المستضعـفين لا يمكن أن يضحى بها باسـم التنمية.. والخـلاف هنا مرة أخرى هو فى درجة التقريب بين الدخول وفى الأسلوب المناسب لتحقيق ذلك.

وهكذا.. وهكذا.

إنه خلاف فى الفروع وليس فى الأصول التي لا تقوم الدولة الإسلامية دونها.

(٣) ومما يحفظ التماسك أيضا: التاريخ الطويل للدولة الفارسية.

وهذا اعتبار مهم. فقبول الناس فى أى مجتمع بالانضباط فى نظام عام للدولة لا تكفى فى تحقيقه دروس تلقى وقواعد دستورية.. إن قبول الناس للنظام يتطلب إلى جانب العدل تدريبا وتعودا تحققه قرون متعاقبة من الممارسة والخبرة.. وإيران لها هذا العمق التاريخى، فهى كمصر من أقدم الدول التى تربت شعوبها على قبول الحكم المركزى، ولذا فإن الهزات العنيفة ضد النظام العام لا تتكرر بسهولة إذا كان العدل قائما، وإذا كانت المركزية تقابلها شورى مشاركة.

(٤) ومع هذا الاستمرار التاريخى للدولة، فإن التقاليد الشيعية داخل الأمة الإيرانية أنشأت مصدرا أخر للاستقرار، فالتنظيم الشيعى يربى المواطن المؤمن على الانضباط الواعى خلف «مرجع التقليد» الذى اختاره، فينفذ توجيهاته فى حياته اليومية ولا يتمرد عليها مادامت الثقة قائمة.

(٥) ومرجع التقليد (أية الله العظمى) هو بالضرورة حجة فى العلوم الإسلامية وقدوة فى الزهد والتقوى.. وعادة يشهد كل عصر عددا من مراجع التقليد يتمتعون بمصداقية متساوية، وفى أيامنا هذه حددت جامعة مدرسى الحوزة فى «قم» سبعة مراجع هم: أية الله على خامنئى (قائد الثورة)، وأية الله حسين الوحيدى، وأية الله ناصر مكارم، وأية الله بهجت، وأية الله فاضل لانكرانى، وأية الله موسى الذانجانى، وأية الله جواد التبريزى.

والمهم هنا ملاحظة أن خلافات كبيرة نشبت وتنشب بين اجتهادات هؤلاء المراجع.. ولكن ترسبت عبر القرون تقاليد التعايش رغم الاختلاف، وتقاليد الوحدة فى الموقف العام إذا تعرض الإسلام لخطر واضح.

(٦) ولكن ماذا لو وصل أحد هؤلاء المراجع إلى قيادة الدولة كما هو الحال الآن بعد قيام الجمهورية الإسلامية؟ فى هذا الأمر خلاف معلن، فالبعض يرفض مبدأ «ولاية الفقيه»، أى يرفض قيادة أحدهم للآخرين وللدولة، والبعض لا يرفض المبدأ ولكن يعتبر نفسه الأجدر، وما يهمنا هنا أيضا هو أن التقليد العريق فى احتمال الكبار للخلاف استمر، ولم تحدث أية محاولة لشق الصف والدولة باسم هذا الخلاف، وقد عبر عن هذا آية الله العظمى السيد على الخامنئى بحسم وأدب.. سئل: ما تكليفنا (أى ما مدى التزامنا) تجاه الأشخاص الذين لا يرون ولاية الفقيه العادل إلا فى الأمور الحسبية فقط؟ (أى مثله مثل أى مرجع آخر).. وكانت إجابة الخامنئى: ولاية الفقيه فى قيادة المجتمع وإدارة المسائل الاجتماعية فى كل عصر وزمان من أركان المذهب الشيعى الاثنى عشرى، ولها جذور فى أصل الإمامة، ومن أوصله الاستدلال إلى عدم القول بها فهو معذور، ولكن لا يجوز له بث التفرقة والاختلاف.

وما قاله الخامنئى حدث بالفعل فالمخالف (بناء على فهمه الفقهى المقدر) لم يعترضه القائد.. والمرجع المخالف لم يلجأ من ناحيته إلى فتن الخروج على الدولة فى ظروف يتعرض الإسلام فيها للخطر.

(٧) والحقيقة أن مبدأ الولى الفقيه (وهو مصطلح فارسى يعنى ولاية الفقيه) الذى بلوره الإمام الخومينى فى كتابه «الحكومة الإسلامية» قبل الثورة، والذى تضمنه الدستور بعد قيام الجمهورية الإسلامية، هذا المبدأ –فى الظروف الإيرانية– ثبت أنه كان عاملا أساسيا فى ترسيخ الاتجاه العام للدولة، وفى إحداث التوازن بين السلطات، وفى تحقيق الاستقرار بالتالى.

(٨) إلا أن حفظ التوازن بين السلطات وصيانة الوحدة للنظام رغم الخلافات، ودور ولاية الفقيه فى كل ذلك، كان تجربة جديدة، وإن استندت إلى تراث عريق..

وكأى تجربة جديدة فإنها تحتاج إلى تدريب بعد معرفة قواعد المباراة.. وهذا ما تحقق فى الجمهورية الإسلامية خلال الأعوام السبعة عشر التالية على وضع الدستور، ولذا فإن القدرة على مواصلة الوحدة بين مؤسسات النظام أصبحت الآن أعلى وأيسر.

* * * * *

إلا أن كل ما ذكرته عن أسباب الاستقرار والتقدم كوم.. والتفاعل الثقافى الجبار داخل الأمة كوم ثان.

مواجهة الانقسام فى عقلية الأمة وشخصيتها

فى كل مجتمعات الجنوب، وفى قلبها مجتمعاتنا الإسلامية، حدث انقسام حاد بين أصحاب العقائد والثقافة التقليدية من جانب، وبين من استوعبتهم عقائد الغزاة المستعمرين وثقافتهم فى الجانب الآخر.. والانقسام كان أكثر ظهورا بطبيعة الحل بين فئات النخب القائدة، أى بين أصحاب الحل والعقد فى مجتمعاتنا، هذا الانقسام نعايشه فى مصر بين الإسلاميين والمتغربين، وكذلك عانت منه إيران.. إلا أن الانقسام فى إيران (وفى كل الأمم المسلمة التى لا تتحدث العربية) كان أفدح وأخطر.. فاستيعاب القرآن والسنة فى هذه الأمم وقراءة المراجع فى العلوم الإسلامية كان متعذرا إلا لمن تفرغ تماما لهذه الدراسة وأتقن العربية بالتالى.. أما من تعلموا فى معاهد التعليم الحديثة الواردة من الغرب، فإنهم عُزلوا فى غالبيتهم عن ثقافة الإسلام وروحه (إلى درجة لم تحدث فى مصر) بسبب حاجز اللغة، ولذا كان الانقسام فى عقل الأمة -كما قلت- أفدح وأخطر، وكان على قيادة الثورة الإسلامية أن تواجه هذه المعضلة وأن تجد لها حلا.

والحقيقة أن الثورة كانت شاملة على نحو لم تشهده ثورة أخرى معاصرة، لقد هزت الثورة الأمة الإيرانية فى الأعماق، فكل القيم والمؤسسات التى قامت فى ظل

الملكيـة الدنيوية المتـغربة انهارت، وأصـبحت هناك فـرصة لكى يبـدأ كل شىء من جديد.. ووسط هذه القابـلية للتغييـر المذهل فى النفوس والمؤسسات، جـرت عملية حوارية تاريخية جـبارة غير مسبوقة لتـجاوز الانقسام فى عقلية الأمة وثقـافتها.. ولولا النجاح فى هذا الميدان لكان انضباط كل ما سبق ذكره مستحيلا.. كل العوامل الدينية والدسـتورية لم تكن لتحفظ وحـدة النظام لولا التغييـر الذى أصاب الناس والذى شمل توحيد الإطار الثقافى والإطار المرجعى للنخب النافذة.

لقـد أشـرت إلى شىء من ذلك فى المقـالين السـابقـين حين تحـدثت عن المناهج والأسـاليب لإعادة التـربيـة لجمـهور الأمـة، ولكن هذا الذى أشـرت إليه كـان فى الحقيقة مشروطا بمناهج خاصة لإعداد الكوادر القيادية للدولة، وبتفاعل مكثف بين المفكرين، وتحديدا بين أهل الحوزة (الـتعليم الدينى)، وأهل الجامعات (التـعليم غير التقليدى).. وقد خطـطوا لهذا الأمر فلم يكن نجاحه متروكـا للصدفة، إلا أننى أترك الاستطراد حول هذه الملحمة لمقال تال إن شاء الله..

واكتـفى هنا بالإشارة إلى أن توفـيق الله تجلى فى ظهور قـيادات للدولة تدرك خطورة الانقسام فى عقلية الأمة وتدرك ضرورة التخطيط لتجاوزه.

لقد مثل الإمام الخومينى -عليـه رحمة الله- هذا الوعى.. وقاد المسعى من بعده آية الله خامنئى ورئيس الجمهورية الشيخ رافسنجانى.

لقد كـان التفـاعل التاريخى بين شطرى الأمـة يتطلب قيـادة قوية بعيـدة النظر وشاء الله أن تتوافر بالفعل هذه القيادة.

إن القيادة الـتى حظيت بالقبول العام، كـانت من العوامل الرئيسيـة فى تنشيط الحوار بين المتخالفين، وفى تنـشيط التفاعل الثقافى وكانت فى الوقت نفـسه عاملا رئيسيا فى منع التصدع فى الوعاء (فى النظام) الذى يجرى فيه هذا التفاعل.

والكفاءة العقليـة لهذه القيادة لم تكن وحـدها سبب قوتها وسبب القـبول العام لدورها فلابد من التنويه بدور القدوة فى الزهد والشجاعـة، فهذا أيضا من أسباب القبول العام لدور القيادة.. بل لعله السبب الأول.

* * * * *

الرحلة الثالثة:

بعد الانتخابات الإيرانية:
قيادة أقوى وانطلاق سياسى واقتصادى أكبر

■ الخامينئى ورافسنجانى يدفعان التجديد . .
والشعب حاصر بالانتخابات من يعترضون

■ خاتمى ليس معتدلا . . إنه ثورى يدرك احتياجات المرحلة

■ العلماء أدوا مهمتهم فى تأكيد الانتماء الإسلامى . .
والتفاضل الآن بالتقوى والكفاءة

■ المناورة العسكرية الكبرى . .
كيف كانت رسالة إلى أمريكا وإسرائيل؟

■ رجال أعمال غربيون يرون
التنمية الإيرانية أعلى مما يعلن رسميا

■ الصواريخ المصنوعة فى إيران يصل مداها إلى إسرائيل

■ ١٠٠ عالم سوفيتى بارز اختفوا من بلاد العالم . .
أين ذهبوا؟!

تذكرنى الانتخابات الإيرانية الأخيرة بقصة القمر الصناعى السوفيتى (سبوتنيك) فى عام ١٩٥٧، فحين انطلقت الصواريخ حاملة قمراً صناعياً لأول مرة فى الفضاء الخارجي، أدركت الولايات المتحدة فداحة التفوق التكنولوجى الذى حققه الاتحاد السوفيتى عليها فى هذا المجال الخطير، وترتب على ذلك أنها أنشأت هيئة أبحاث الفضاء (NASA) وحشدت كل إمكاناتها من أجل اللحاق بالسوفييت ثم سبقهم، ولكن أهم من ذلك أن النخب السياسية والفكرية فى الولايات المتحدة قدرت بعد مفاجأة سبوتنيك أنها تحتاج إلى إعادة النظر فى تقييمها السابق للقوة السوفيتية، فقد درجوا فى ظل الحرب الباردة على التهوين المبالغ فيه من شأن السوفييت وقدراتهم.. بدأ الأمر كلاما فى الإعلام للتأثير فى الرأى العام، ثم أصابهم ما أصاب جحا فى القصة المشهورة، حين اخترع كذبة فلما صدقها الناس، مال هو أيضا إلى تصديقها وقال: يمكن تكون صحيحة!

صدقت النخب الأمريكية أن النظام السوفيتى بالغ الضعف والتخلف، ولذا كان انطلاق سبوتنيك مفاجأة غير متوقعة، فقرروا أن يعيدوا دراسة مفهومهم عن الاتحاد السوفيتى من أول وجديد.

و..شىء من هذا حدث مع الانتخابات الإيرانية لرئاسة الجمهورية، فقد أدت ظروف كثيرة إلى أن تكون هذه الانتخابات تحت أضواء المتابعة العالمية أكثر من أية انتخابات إيرانية سابقة، وكان من هذه الظروف أن المنافسة كانت حامية، وقد ظهر أمام الكل مستوى الأداء الرفيع، والذى لامثيل له فى دول العالم كافة (أكرر بالفم الملآن: لامثيل له!)، وهذا المستوى الرفيع يعكس أمام كل ذى عينين حيوية هذه الأمة الإسلامية وجدارتها (بناخبيها ومرشحيها)، كما يعكس أمانة الإدارة

نشر هذا المقال بجريدة «الشعب» عدد ١٣/٦/١٩٩٧

السياسية (الدولة) وكفاءتها.. وهذا الذى رآه الناس جميعاً أدهش الناس جميعا من أذاعوا وصدقوا طوال سنوات أن حكم الإسلام قد أعاد إيران إلى ظلام سحيق، وأن الشعب الإيرانى فرض عليه التخلف من كل ناحية، وأنه يعيش فى ظل استبداد دموى سفيه.. هؤلاء(فى بلادنا وفى بلاد العالم الآخرى) كانت الانتخابات الإيرانية بالنسبة لهم مفاجأة غير متوقعة، ولاتتفق مع تحليلاتهم السابقة، وعسى أن تدعوهم هذه المفاجأة -كما حدث فى قضية سبوتنيك- إلى إعادة الدرس والتأمل فى حقيقة الحكم الإسلامى، وحقيقة ماجرى فى إيران منذ قيام الثورة الإسلامية.

أما بالنسبة لنا، فيعلم أعضاء حزبنا، وكل من يتابع تحليلاتنا ومواقفنا، أن نزاهة الانتخابات الإيرانية هى أمر توقعناه، وهى عندنا استمرار للتقاليد السياسية للجمهورية الإسلامية، وهى فى إطار إنجازات حضارية متكاملة (تربوية ومادية) شرحناها مراراً.. ولكن كان البعض من قومنا لايريد أن يفقه مانقول!

تمعنوا فى هذه الحقائق لكى تفهموا مايجرى فى إيران

وإذا كنا فى هذه المناسبة، ندعو هؤلاء إلى إعادة تقييم مواقفهم فإننا على سبيل التذكرة نقدم باختصار بعض الحقائق الأساسية.

(١) من الناحية الاقتصادية حققت إيران خلال السنوات الثمانى الماضية (أى فى فترتى رئاسة هاشمى رافسنجانى بعد حرب الخليج الأولى) معجزة تنموية تفوق أية معجزة تنموية معاصرة أخرى، ويكفى أن نذكر أنها تحققت بعد الدمار الرهيب للحرب، وبدون مساعدة خارجية، بل تحققت هذه المعجزة وسط حصار دولى، ووسط تهديد متواصل بفرض حرب جديدة.

(٢) ويبدو أنه يتعذر علينا أن نتعرف على الصورة الإجمالية الحقيقية لما أنجزته الجمهورية الإسلامية، فهى -لأسباب أمنية- لاتعلن كل المعلومات وماتعلنه يبخس فى العادة حجم ماتحقق، من ذلك مثلا مايعلن عن معدل النمو السنوى فى الناتج المحلى الإجمالى خلال الخطة الخمسية الثانية، إذ يقال إنه تراوح ما

بين ٥ و٧٪، وهو معدل محترم، ولكن المتابعة للمشروعات المعلن إنجازها فى القطاعات المختلفة تغذى تصورنا أن المعدل العام للنمو يتجاوز الـ٧٪ التى يتكلمون عنها، وقد أيدنى فى هذا التصور ماسمعته من بعض رجال الأعمال الغربيين الذى يتعاملون مع الاقتصاد الإيرانى، فقد وجدتهم يرددون مثلى أن التنمية الحقيقية فى إيران أضخم كثيرا مما يعلن فى البيانات الرسمية.. وقالوا لى: إنهم مذهولون مما يرون ويلمسون!

(٣) لقد أدرك التخطيط الإيرانى قيمة البنية التحتية (الهياكل الارتكازية) فعمد إلى تنميتها السريعة، وكان هذا يتضمن أن تترابط المدن الكبرى والقرى بوسائل نقل واتصالات حديثة. وبالفعل أصبحت الآن كل المدن الكبرى مترابطة بطرق عالية الكفاءة، والطرق الريفية المعبدة كانت صفراً قبل الثورة، فأصبحت الآن بطول ١٨ ألف كيلو متر، والطرق الترابية زاد طولها بنسبة ٦٩٠٪، والقرى التى تصلها الكهرباء كانت ٣٢٠ قرية فأصبحت ٢٧٥٠٠ قرية، وكل هذا ييسر انتقال البضائع والأفراد، وكذلك ييسر إقامة المشروعات الصغيرة والمتوسطة والكبيرة فى كل مكان، ويدعم ذلك أن خطوط السكك الحديدية توسعت بدورها جداً، وكذا المطارات والموانىء والتليفونات (أصبح هناك تليفون لكل ثلاثة مواطنين وهذا من أعلى المعدلات العالمية!).

(٤) وتنمية البنى التحتية كانت جزءا من التنمية الشاملة وفى خدمتها (وليس كما حدث فى مصر، حيث قامت المشروعات العملاقة فى الكهرباء والاتصالات وما أشبه بدون تنمية ومشروعات إنتاجية جديدة!). وينعكس هذا أول ما ينعكس فى الإنتاج الزراعى الذى ينمو بمعدلات مذهلة من خلال التوسع فى السدود وتطوير أساليب الرى واختيار المحاصيل المناسبة. ورغم معدلات النمو المرتفعة فى السكان (كانوا فى بداية الثورة ١٥ مليونا والآن أكثر من ٦٠ مليونا)، فإن درجة الاكتفاء الذاتى فى الغذاء ترتفع باطراد مع ارتفاع كبير فى

مستوى معيشة أهل الريف. والشعب الإيرانى له استهلاك عال فى اللحوم الحمراء والبيضاء، وقد تحقق الاعتماد على النفس بنسبة ١٠٠٪ فى اللحوم البيضاء، ومفروض أن يتوقف استيراد الحمراء بعد ثلاث سنوات.. أما القمح فإن الاكتفاء الذاتى منه يتحقق بعد ٥ سنوات مع إقامة ١٠ سدود تم منها ٤.. إنهم يؤمنون أنفسهم من ناحية الغذاء مع تحقيق فائض متزايد للتصدير فى كثير من المحاصيل الزراعية الأخرى.

(٥) أما فى الصناعة فتقول البيانات الرسمية إنه تم منذ عام ١٩٨٩ افتتاح ٩٨٠٠ وحدة صناعية فى الفروع المختلفة، وهى وحدات تتشابك فى أغلبها مع بعضها البعض فلا تحصل على مدخلاتها (مستلزمات الإنتاج) من الخارج، ويقال إن من بين هذه الوحدات ٤٠٠ مشروع للصناعات الثقيلة التى يرتكز عليها، فهم يستهدفون أن يكرروا غالبية بترولهم المصدر (أى لايصدر خاماً)، وصناعة البتروكيماويات تمد المشروعات المحلية وتصدر بكميات كبيرة، والأمر نفسه يقال عن صناعات الصلب والنحاس والألومنيوم والأدوية، وكذلك صناعات العدد والآلات (التى هى أساس فى التقدم الصناعى المستقل)، ومايمتد من ذلك إلى صناعة سيارات الركوب والشاحنات (ليست تجميعاً ولكن التصميم والمكونات إيرانى ١٠٠٪)، وأيضًا الطائرات (حمولة ٥٠ راكبا الآن ١٠٠٪ إيرانية والعمل الآن فى طائرات ١٥٠ راكباً)، وأيضا الصناعات الإلكترونية (التليفزيون هناك ١٠٠٪ إيرانى).. إلخ.

من هنا لايكون غريبا أن تسمع عن قدرة الجمهورية الإسلامية على تصنيع كل قطع الغيار اللازمة لأسلحتها وكذلك كل الذخائر.. بل ليس غريبا أن نسمع عن قدرتهم على تصنيع الدبابات والطائرات العمودية، وقد جاء فى التصريحات الرسمية أنهم يملكون القدرة الفنية على إنتاج الصواريخ، ومنها الصوايخ بعيدة المدى (١٥٠٠كم)، أى التى تصل إلى إسرائيل!

ولولا القيود السياسية المفروضة على السلاح الإيرانى لأصبح إنتاجهم منه (كما يقولون) من أهم السلع التصديرية.

(٦) والحقيقة أن كل هذا الذى ذكرناه فى مجال التنمية العينية، أى فى مجال الإنتاج الحقيقى، ما كان ليحدث لولا القدرة على تعبئة علمائهم وفنييهم المؤمنين لإحداث ثورة تكنولوجية، فالإبداع المحلى فى تصميم الآلات والمنتجات هو الدينامو الذى يولد الأسباب المادية للتنمية، وهذا الاعتماد على النفس لا يؤكد استقلال التنمية وحسب، وإنما يخفض التكلفة فيزيد بالتالى عدد المشروعات الممكن تنفيذها (سمعت مثلا من اقتصادى إيرانى أن فى مشروع مترو طهران طلبت الشركات الأجنبية ٦ بلايين دولار من أجل إقامته، فاعتمدوا على أنفسهم ويفتتح هذا العام، ولم تتجاوز التكلفة ٨٠٠ مليون دولار فقط).

ولكن لا يعنى هذا أنهم يديرون ظهرهم للخارج، فهم يتدافعون للاستفادة من الخبرة الأجنبية، ويشمل هذا فتح الأبواب للاستثمار الأجنبى فى المجالات التى تدعم قوتهم الاقتصادية (وليس عمال على بطال!).. وبهذه الشروط هناك مشاركة مع الأجانب فى ٤٠ مشروعا صناعيا، ويقول وزير الصناعة الحالى (محمد رضا نعمت زادة) إنهم سيقدمون مزيدا من التسهيلات لجذب استثمارات أجنبية أخرى.

* * * * *

إن الجمهورية الإسلامية تستخدم علماءها وفنييها بالطاقة القصوى.. ولكنها إلى جانب هذا تستعين بكل مدد خارجى ممكن لتسريع إمكاناتها الإنتاجية والعسكرية.. وفى هذا الصدد سمعت من مصدر أمريكى أن القلق من هجرة العلماء بعد انهيار الاتحاد السوفيتى جعلهم يتقصون ويدرسون، وأثبتت الدراسة -كما يقول- أن هناك ١٠٠ من كبار العلماء السوفييت فى

تخصصات دقيقة مختلفة لم يعثر لهم على أثر فى كل الدول.. وهم يتساءلون فى الولايات المتحدة (وعينهم على إيران طبعا): أين اختفى هؤلاء؟!

* * * * *

(٧) ويجرنا هذا إلى الجيش والحرس الثورى.. وأكتفى هنا بالإشارة إلى المناورة العسكرية الكبرى (فى شهر مايو وشارك فيها ٢٠٠ ألف مقاتل)، فقد جسدت هذه المناورة الفهم الاستراتيجى الصحيح الذى يربط بين قضية البترول والمواجهة المحتملة مع الأمريكان فى الخليج، وبين قضية المواجهة مع الصهاينة فى فلسطين.. لقد بدأت المناورة فى الخليج ولكن كان إسمها «طريق القدس» وهى تسمية منطقية.

ويقول اللواء محسن رضائى (القائد العام لقوات حرس الثورة الإسلامية) إنهم «نصحوا القوات الأجنبية المتواجدة فى منطقة الخليج -وضمنها القوات الأمريكية- بأن تترك المنطقة تماما، أو تبتعد إلى أقصى مسافة، وبالفعل غادرت الخليج أكثر من ٢٢ وحدة بحرية، والبقية رست بعيدا جدا عن منطقة العمليات».. وقد قامت القوات الإيرانية المشاركة فى المناورة بفرض سيطرتها الكاملة على بحر عمان ومضيق هرمز، وعلى كل الخليج خلال مرحلة العمليات .. وقد تم فى هذه المناورة الكبرى استخدام واختبار للصواريخ (المصنعة فى إيران) بالذخيرة الحية: صواريخ أرض-جو، وصواريخ ساحل-بحر، وصواريخ أرض-أرض.. وخلال المرحلة الأخيرة للمناورات قامت الوحدات الصاروخية التابعة لحرس الثورة الإسلامية بقصف مواقع العدو الوهمى على مدى نصف ساعة، وأعقب ذلك هجوم شنته قوات المشاه والوحدات المدرعة على مواقع العدو.

كانت المناورات رسالة واضحة للبيت الأبيض، وقد أكد مرشد الثورة السيد على الخامنئى (الذى حضر المناورة) أن الهدف هو ردع العدو الأمريكى من خلال إفهامه أنه سيسحق إن حاول العدوان، وقال: «إن أسباب هذه الدسائس والمخططات

الشيطانية الدنيئة ضدنا ترجع إلى أن الشعب الإيرانى حريص على استقلاله، تحت راية حاكمية القانون الإلهى،وهو يرفض الركوع أمام أعدائه».

ورغم حرص الجمهورية الإسلامية على طمأنة دول الجوار فى الخليج حول طبيعة المناورات وأنها موجهة للأمريكان وحدهم، فإن الاهتمام كان زائدا فى هذه الدول بسير المناورات، وحرصت تليفزيونات المنطقة على متابعة تفاصيلها طوال ٤٨ ساعة، ومؤكد أن هذه الدول أصبحت تعى -فى ضوء ما رأت- خطورة أن يحاول الأمريكان الاعتداء على الجمهورية الإسلامية انطلاقا من أرضهم أو من مياههم الإقليمية.

وقد أوضح السيد خامينئى فى خطابه أن المناورات إن كانت رسالة تحذير «للشيطان الأكبر» (أمريكا) فإنها فى الوقت نفسه رسالة تحذير «للكيان الصهيونى اللقيط إذ يجب أن يكف هذا الكيان الغاصب شره عن فلسطين».. إلا أن هذا المعنى لم يكن مجرد كلمات فى خطاب، ولم يكن كذلك مجرد تسمية للمناورة (طريق القدس)، فالمضمون العملياتى للمناورة ذاتها جسد الارتباط بين الجبهتين: جبهة الخليج وجبهة فلسطين، فهذه المناورات كان طرفها الأول برمائى فى الخليج، ولكنها تنتشر فى ٢٠٠٠ كيلو متر مربع وتشتبك عند طرفها الآخر فى حرب برية فى خوزستان وكرمنشاه (على الحدود الإيرانية- العراقية)، ولم يكن مقصودا من هذا أن هناك عدوانا محتملا من العراق، ولكنها -فى ظنى- إشارة إلى الجيش التركى، بأن القوات المسلحة الإيرانية قادرة على المواجهة فى حالة فتح جبهتين فى وقت واحد: جبهة أمريكية فى الخليج وجبهة مع الجيش التركى إن هو تورط فى تحالف عدوانى مع إسرائيل.

* * * * *

إن جيش المؤمنين الموحدين فى إيران يرهب أعداء الأمة الإسلامية سواء لروحه الاستشهادية أو لقوته التسليحية أو للقيمة الاستراتيجية لمواقع انتشاره.. ويزيد

الأعداء رعبا أنهم يتوقعون امتلاك الجيش الإيرانى لأسلحة نووية تسربت إليه من الترسانة النووية السوفيتية التى تصدعت نظم السيطرة عليها.. هذا الكلام شائع فى عديد من الدراسات والتقارير الغربية، وقد سمعت من دبلوماسى عربى فى طهران أن ملحقا عسكريا فى سفارة غربية سأله فى لهفة وقلق: هل تظن أن الإيرانيين حصلوا على سلاح ذرى؟ فأجابه: أظن أنكم أدرى.. ورد الملحق العسكرى الغربى: بل نحن لم نتوصل بوسائلنا إلى معرفة أى شىء عن هذا الأمر.. ولعل بوسعك أنت أن تعرف من خلال علاقاتك الخاصة معهم!

(٨) إن هذه القوة الإيمانية المادية التى تردع الأعداء فى ميادين القتال المحتمل، هى أيضا تسند قادة الجمهورية الإسلامية فى مواقفهم السياسية التى تتحدى دول الاستكبار بجرأة تفوق الخيال. إن الشيطان الأكبر (الولايات المتحدة) يسمع من مرشد الثورة ومن رئيس الجمهورية ومن كل المسئولين كلمات تحريضية وإنذارات لا يمكن أن يطيقوا سماع عشرها فى أية دولة أخرى.. إن الولايات المتحدة التى تفرض استعلاءها فى كل أنحاء الأرض، نراها تتجرع الذل على يد الجمهورية الإسلامية فى إيران، ولا تملك أن ترد!. وحتى حين حاولت فرض الحصار على الجمهورية الإسلامية، وجدنا أنها هى التى أصبحت معزولة، فكل الكتل الدولية المعتبرة رفضت أن تسايرها، وأصبحت الولايات المتحدة وإسرائيل فى جانب بينما العالم كله فى صف التعامل مع إيران فى الجانب الآخر.

وقد تورط الاتحاد الأوربى فى أوائل مايو فى إصدار قرارات هللت لها الولايات المتحدة لأنها مست هيبة إيران وقيادتها (بعد الحكم فى قضية ميكونوس فى ألمانيا)، ولكن دول الاتحاد الأوربى فوجئت بتصدى الجماهير -بالملايين- للدفاع عن الجمهورية وقادتها، وقال مرشد الثورة: «إن الموقف الأخير لدول الاتحاد الأوربى ضد إيران هو موقف وقح وخاطىء وغير مؤدب(!) وعلى الحكومة

الإسلامـية أن تواجه بكل قـوة هذا الموقف».. وبالفعل تصـدت الحكومة، واضطرت الدول الأوربية إلى التراجع بعد انفراط عقدها.. وحق للرئيس رافسنجانى أن يقول: «إن هذه الدول اتخذت موقفا مخجلا واستسلمت أمامنا بسرعة».

أرأيت ماذا فعل الإيمان بالنفوس؟ أرأيت كـيف أن الله ينصر من ينصره؟ إن الله لقوى عزيز.

* * * * *

بدون الإشارات السابقة يسـتحيل أن تفهم مغزى انتـخابات الرئاسة الإيرانية.. وإذا استـوعبت ما تقـدم لا يمكن أن تكون الانتخـابات الحرة مفـاجأة ليس لهـا ما يبررها، وكـذلك فإن إدراك مـا تقدم يجعل الحـديث عن احتـمال التـصدع فى بناء الجمهورية الإسلامية (بعد نتائج الانتخابات) شيئا يشبه الهذيان!

وحدة الأمة: الشيعة والسنة

وفى أوائل هذا العـام كتبـت ثلاث مقالات بـعد عودتى من زيـارة إيران، وكان عنوان المقال الثانى: «مـن يشهد الخلافات السـياسية فى إيران يتصـور أن نظامها سينهـار» ولكن ثبت أن الديمقراطية والانتـخابات الحرة هى التى تدعم الاستـقرار والتنمية».. أما المقال الثالث فكان عنوانه «٨ أسباب تمنع تصدع النظام الإيرانى رغم حدة الخلافات– وحدة الأمة حول حكامها الإسلاميين فريضة لكن لها شروط».

تحت هذه العناوين حللت أسبـاب ثقتى باستـقرار النظام، وكانت الأسبـاب تبدأ (كما فعلت فى هذا المقال) من الإنجـازات المادية المذهلة، وتمتد إلى شرح المؤسسات الحاكمـة، وكيف تعمل باقتدار فى تعـبئة الجماهيـر وتوجيهها. فكل مـا تحقق كان مستحيلا لولا القدرة الفذة على هذه التـعبئة، ولولا كفاءة التنظيم السياسى للدولة ومـؤسسـاتهـا فى تيـسيـر درجـة عاليـة من المشـاركة فـى اختـيـار المسئولين ومحاسبتهم.

إلا أننى انتهيت فى مقالاتى السابقة إلى عرض السبب الأهم والأعمق فى تحقيق الاستقرار، وهو النجاح فى إعادة التربية والتثقيف لجمهور الأمة وفق المنهج الإسلامى الصحيح.. وهذا ما أنوى التوسع فيه الآن.

* * * * *

منذ نجحت الثورة الإسلامية فى إقامة دولتها، كان واضحا لقائد الثورة ومؤسس الدولة الإمام الخومينى رضى الله عنه، أن انتشار الثورة واستقرار النظام، يعتمدان على وحدة الجماهير الثائرة فى مواجهة أعدائها، وهذه الوحدة كان يهددها فى الأساس عند الإمام: الانقسام المذهبى بين الشيعة والسنة من ناحية، ثم الانقسام بين أهل الحوزة وأهل الجامعات من الناحية الأخرى.

وفى الجبهتين حاول الخومينى فعلا (وبكل وزنه الفقهى والتاريخى) أن يرأب الصدع، ورغم الجهد الذى بذله واستمر فيه تلامذته، ثبت أن العملية تحتاج بالضرورة إلى زمن ممتد.

فعلى الجبهة الشيعية السنية، كانت نظرية الإمام الخومينى حول ولاية الفقيه إسهاما كبيرا فى تقريب المسافة بين الفقه السياسى للشيعة والفقه السياسى للسنة (ولا يتسع المقام للتفصيل، ولكننى أحيل هنا إلى الدراسة القيمة فى هذا الموضوع لأستاذنا الدكتور توفيق الشاوى: فقه الحكومة الإسلامية بين السنة والشيعة- وقراءة فى فكر الثورة الإيرانية- ١٩٩٥).

وبعد الثورة كان الإمام الخومينى يقول: «إنى أحذر الشعب بأسره من أن اتباع زارعى الفتن -وأيا كانوا- سيعرض البلاد للوقوع فى أحضان أمريكا».. و«إن الخلاف بين أهل السنة والجماعة من جهة والشيعة من جهة أخرى، وبث السموم وإلقاء الشائعات لإيجاد الفتن والعداوة بين الإخوة المسلمين هو الأمر الأشد تخريبا».

وقد انعكست هذه المفاهيم فى عـديد من الإجراءات التى تصدت للغلو عند بعض علماء الشيعة الذين تجمدوا عند مفاهيم أججت الخلف والتعادى فى الماضى (وامتد هذا فى الأذان والصلاة حـتى الموقف من الخلفاء الراشدين وجـمهور الصـحابة).. وللأسف لم يقابل هذا المسعى ردا إيجابيا مناسبا من علماء السنة.

* * * * *

وقد التـقيت فى زيارتى الأخـيرة لطهـران مع أية الله كاشـانى (عضـو مجلس صيـانة الدستور) وسمـعت منه شرحا مطولا لجـهوده العلميـة فى تقريب الإيمان بعودة الإمام الغائب عند الشيعة إلى عقـيدة أهل السنة حول المهدى المنتظر، معتمدا على ماجاء فى القـرآن الكريم، وفى كتب الحديث المعتـمدة لدى الفريقين. وهو يرى -ومعه حق- أن التوصل إلى عقيدة مشتركة فى هذا الأمر يعتبر خطوة مهمة لجمع الصف الإسلامى.

* * * * *

على أى حال.. أظن أن أخطر المحاولات الفقهية باتجاه التقريب تجلت فى اقتراح الإمام الخومينـى قبيل وفاته حين قال: إن خط التقـسيم المشروع بين المسلمين فى عصرنا هـو بين أصحاب الإسلام المحمـدى وأصحاب الإسلام الأمـريكانى، وكانت هذه الدعـوة تتضـمن تجـاوز الخلاف الموروث بين الشـيعـة والسنة، لكى يصـبح الخلاف بين المسلمين المسايرين للمسـتكبرين فى سيـاساتهم وأنماط حـياتهم (أيا كانت مـذاهبهم)، وبين المسلمين المجاهديـن (أيا كانت مذاهبـهم أيضا)، ويلاحظ أنه وصف هؤلاء بأصحـاب الإسلام المحـمـدى أى وقف عند الرسول عـليه الصـلاة والسلام الذى يلتقى عنده كل المؤمنين بالإسلام.

ولكن ثبت -كما قلت- أن هذا الأمر يتـطلب مزيدا من الجهد والوقت.. وعلى أى حال فإن الخطر فى هذه الجبهة لا يهدد الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى داخلها، حيث يشكل الشيعة (من المذهب الجعفرى) الأغلبية الساحقة، ولكن تكمن أهمية هذا

الأمر فى تعميق التلاقى والتحالف بين إيران وجمهور السنة خارجها (وهم غالبية المسلمين).

توحيد الأمة: الحوزة والجامعة

ولكن خطر الانقسام فى الداخل يكمن فى الانقسام بين أهل الحوزة (أى أصحاب العلم الإسلامى التقليدى) والجامعات (التى تدرس علوما عصرية غربية).. الأولون حفظوا الإسلام وصانوه طوال قرون، ولكن تجمد أغلبهم عند الكتب القديمة وغرقوا فى الفرعيات.. والفريق الثانى يدرك خطورة التخلف العلمى والاقتصادى، ولكن ثقافته الغربية لم تجعله يصل إلى أن التقدم المطلوب لأمتنا يتطلب معرفة عميقة بالإسلام.. لقد انقسم عقل الأمة بين الفريقين وانشقت شخصيتها، وكان الإمام الخومينى يدرك أن النهضة الإسلامية الحقة لا تتحقق إلا إذا عاد التكامل بين الفريقين، فنبذ كل فريق ما يعوق بصيرته عن رؤية الحق الواحد، وأخذ كل ما ينقصه من العلم النافع عند الفريق المقابل. كان الإمام الخومينى يقول «لتسع الجامعة فى تحكيم ارتباطها بالفيضية (أى بالحوزة)، ولتسْع الفيضية كذلك لتقوية علاقتها بالجامعة».

وقد لجأت قيادة الإمام الخومينى إلى كل السبل التى ظنها مفضية إلى هذا الهدف، فاستخدم كل نفوذه لدفع التكامل والتفاعل سياسيا وفكريا. فمن الناحية السياسية أصر فى البداية على منع علماء الحوزة من احتكار المناصب القيادية فى الدولة (رغم دورهم الأبرز فى إنجاح الثورة)، وقد قيل لى إن الشهيد أية الله بهشتى (وكان مثقفا لامعا ومقربا من الإمام) نقل إلى أية الله الخومينى طلب البعض إليه ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية، ولكن القائد رفض هذا الطلب، ودفع بكل قوة أبو الحسن بنى صدر (أستاذ الاقتصاد من فرنسا)، حتى نجح بأغلبية كبيرة، ولكن أثبتت التجربة أنها سابقة لأوانها، ومع تداعى الصدمات والتحديات عدل الإمام الخومينى عن رأيه فى إبعاد علماء الحوزة من منصب الرئاسة، ومنذ

عام ١٩٨١ (حين انتخب السيد الخامينئى لرئاسة الجمهورية) توالى على رئاسة الجمهورية بعد السيد الخامينئى، حجة الإسلام والمسلمين هاشمى رافسنجانى، ثم الآن حجة الإسلام والمسلمين السيد خاتمى.. ولكن مع تزايد تدريجى فى وزن السياسيين خريجى الجامعات فى كل مؤسسات الدولة (وهو التطور الذى عكست اكتماله انتخابات الرئاسة الأخيرة).

وقد ذكرنا أن دفع هذا التفاعل والتكامل كان يتم عبر مختلف السبل، ومؤكد أن دفع الحوار الفكرى المباشر داخل الحوزة وداخل الجامعة ثم بين الاثنين، كان خطوة مقدرة، ولكن هذا الأمر كان فى البداية بالغ العسر، بسبب تعصب كل فريق لما نشأ عليه ولما وجد عليه أسلافه.. ولذا تطلب الحال إجراءات فوقية انتقالية تمنع الكيد والأذى وإن لم تحقق التفاعل الصحى الذى كان مرجوا. لقد أوقفت الدراسة فى الجامعات لتنقية المناهج ومنع انحرافاتها الظاهرة، وفى المقابل لم يكن واردا ولا معقولا اتخاذ إجراء مشابه فى الحوزات، فتثبيت الصبغة الإسلامية للجمهورية (التى أيدها الشعب بنسبة ٩٥٪ فى استفتاء عام حر) جعل دور علماء الإسلام فى هذه المهمة المقدسة ضرورة، حتى إن كان فكر أغلبهم فى البداية متجمدا، ولكن هذا لم يعفهم من تدخل الإمام الخومينى المباشر بإصدار فتاوى ومقترحات تحمل وزنه وتأثيره الغالب.. ومن ذلك آراؤه حول ولاية الفقيه التى أشرت إليها.. وقد يبدو لنا غريبا أن فتواه بحلة الموسيقى والشطرنج لاقت ضيقا شديداً من أغلب العلماء، ولكن كان هذا ما حدث، وكان هذا أيضاً ما توقعه، ولذا أخر صدور هذه الفتوى (منعا للفتنة) إلى قبيل وفاته، وهذا يعكس كيف كان تطوير الفكر الحوزى بالغ الصعوبة،حتى فى الأمور التى تبدو لنا بدهية!

لقد بذلت جهود صعبة لمحاربة الجمود والتقليد الأعمى: تقليد الغرب أو تقليد القدماء، ولكن كانت النتائج فى البداية محدودة، ولذا أقيمت إلى جانب المؤسسات التقليدية مؤسسات جديدة تتعهد الشباب بتربية حديثة. بدأت العملية بإنشاء

جامعة الإمام الصادق فى طهران.. وبعد أعوام طويلة نشأت فى قم كذلك مؤسسات يرأسها آيات الله المجددون (وإن ظلت من الناحية الإدارية فى نطاق الحوزة)، وأذكر منها «مؤسسة الإمام الخومينى للدراسات والتعليم» التى يقودها آية الله مصباح اليزدى، فهى تنافس جامعة الإمام الصادق فى السعى لتخريج شباب مسلم ينشأ منذ البداية منفتحا على مشاكل العصر. إنهم يدرسون الفلسفة الإسلامية والغربية والعرفان والشريعة والقانون والسياسة وعلم الإدارة.. إلخ.

إن هاتين المؤسستين تقبلان الطلاب المتفوقين بعد اختبارات دقيقة، وهما تعدان أنبه العقول ليعملوا فى وظائف الحكومة المختلفة. وقد انتشر خريجو جامعة الإمام الصادق بالذات على نحو واسع (لأنها الأقدم).. ولكن بعد كل هذه الأعوام، لم تعد هذه الجامعة ولا مؤسسة الإمام الخومينى تحتكران تدريس المناهج وفق اجتهاد إسلامى جديد، فقد انتشر هذا المنحى (بدرجة أو أخرى) فى كل الجامعات، وأصبح، حاكما فى مراحل التعليم الأخرى.

* * * * *

وقد رأيت فعلا نتائج هذا التحول الجبار فى البناء الثقافى والاجتماعى، ففى كل الوزارات التى زرتها فى رحلتى الماضية لإيران لاحظت أن جيلا جديدا من هؤلاء الإسلاميين المعاصرين أصبح يحتل أغلب المواقع العليا.. وحين سألونى فى الجمهورية الإسلامية أثناء تلك الزيارة: ما ملاحظتك الأولى على إيران بعد زيارتك الأولى (عام ١٩٨٩)؟ قلت إن ملاحظة هذا التجدد فى بناء الدولة على يد جيل يمثل التوليفة المطلوبة (من التمسك بثوابت الإسلام مع مرونة الفهم للمشاكل الحالية) هو أهم ملاحظة، وقد وافقونى على هذا.

* * * * *

وينقلنا هذا إلى أن حالة الحوار لتوحيد شخصية الأمة وهويتها لم تكن مجرد نقاش فى غرف مغلقة، ولم تكن كذلك مجرد تعديل فى الثقافة العامة أو مناهج

التعليم (مع أهمية هذا كله)، فقد دفعت قيادة الثورة كل أبنائها فى أتون المشاكل الساخنة لكى يتعاونوا فى إيجاد الحلول الملائمة لها، وأصبح الكل مضطرا فى ضوء هذا الدفع العملى إلى تغيير بعض أفكاره.. خريجو الحوزات وخريجو الجامعات اجتمعوا معا فى مجلس الوزراء وفى كل مستويات الإدارة الحكومية، وكذلك فى الجيش والأجهزة الأمنية، وفى مجلس الشورى الإسلامى.. لقد تحقق الكثير من خلال هذا التعاون المباشر والتلاحم، ولكن ظل هناك بطبيعة الحال محافظون يتعثرون فى ملاحقة متطلبات العمل والتغيير.

والتغيير المطلوب بحثه ليس فى إدارة الدولة وحدها، فالتغيير الشامل الذى لبس الأمة كان أساسا فى تنميتها الاقتصادية والاجتماعية،وهنا أيضا ظهر المتدافعون وظهر المحافظون.. فنحن نسمع مثلا عن «البازار»، ورجال هذا «البازار»، -أى السوق- هم التجار التقليديون الذين ألفوا تحقيق أرباحهم فى اقتصاد لايعرف التوسع، وهؤلاء هزت التنمية الحالية المتسارعة قيمهم وعلاقاتهم التقليدية مع الناس ومع علماء الإسلام المحافظين، فتألف من الفريقين تحالف يسعى إلى إبطاء التنمية، ولكن فى مواجهة هؤلاء ظهر الفنيون والإداريون المسلمون الجدد، وظهر رجال الأعمال الصناعيون الجدد الذين ارتبطوا ببرنامج رافسنجانى من أجل التنمية المستقلة عالية المعدلات (إلخ...إلخ).

نجاح خاتمى استمرار للثورة بكفاءة أعلى

خلاصة القول إن الجمهورية الإسلامية فى إيران دخلت مرحلة تخالف ما سبقها، وإن بنت عليه.. وعلى رأس هذه المرحلة نخبة جديدة، لايغلب عليها علماء الإسلام باعتبارهم المتخصصين وحدهم فى العلم الإسلامى، فقد مضت مرحلة التثبيت الأولى للهوية الإسلامية، وأصبح المطلب الآن، وبعد شيوع العلم الإسلامى، أن يتصدر للقيادة الأتقى والأبرع، سواء أكان من خريجى الحوزة أم خريجى الجامعات، فبعد كل ما جرى من تفاعل وتكامل أصبح طبيعيا أن يشارك علماء

الحوزة بقدر ما يمكن أن يسهموا به فى الإدارة السياسية الناجحة.. وهذا ما عبرت عنه نتائج الانتخابات العامة لرئاسة الجمهورية، فهى لم تكن تمردا على علماء الإسلام، من حيث هم علماء إسلام، ولكن كانت تمرداً على جمود الكثيرين، ودعوة لمزيد من الحيوية فى قيادة الأجهزة التنفيذية والأنشطة الاقتصادية، ويجب أن نتذكر أن خاتمى (الواسع الأفق) من خريجى الحوزة.

ونتائج الانتخابات لم تكن كذلك تمردا للشباب على الجيل صاحب السابقة فى الجهاد قبل الثورة وأثناءها، فمن ناحية لايعتبر الرئيس الجديد خاتمى شابا بعيدا عن تاريخ الثورة الإسلامية وجهادها، وكذلك مؤيدوه الأساسيون، ومن ناحية أخرى فإن الشباب فى إيران قد امتحنوا بدورهم بالحرب وابتلاء الصبر على مشاق البناء، فلهم بالتالى مثل ما لسابقيهم فى الجهاد.. إن تأييد الشباب والنساء لخاتمى هو جزء من الوعى العام بضرورة التجدد وتولية من يستحق، وقد اشترك فى هذا جمهور الشباب والنساء إلى جانب الشيوخ وعلماء الإسلام الذين أثبتوا استيعابهم للخبرة ، وأصبح من حقهم بالتالى أن يواصلوا المسيرة من مواقع قيادية.

ويجب أن نضيف هنا أن قدر الله أبقى على قمة السلطة فى الجمهورية الإسلامية قيادتين تاريخيتين هما أية الله الخامينئى، وحجة الإسلام هاشمى رافسنجانى (أفلت كل منهما من محاولة اغتياله بمعجزة).. وكل من القائدين تجسيد للجمع بين الإيمان الدينى، والزهد، والثقافة الإسلامية، وبين الكفاءة العليا فى التخطيط السياسى والإدارة.. إنهما تجسيد للنموذج المطلوب لقيادة الجمهورية الإسلامية بتحدياتها المعاصرة.. ومن خلال ذلك حصل الرجلان على تأييد جماعى، منذ وفاة الإمام الخومينى وحتى الآن.. وبمقتضى هذه الخصال التجديدية الأصيلة فإنهما سعيا دائما فى اتجاه توحيد الأمة الإيرانية عبر التفاعل بين أصحاب

الثقافات المتخالفة، وعبر انتصار للتجدد من خلال الحوار والعمل.. ولولا هذا السير على منهج الإمام الخومينى لما تحقق فى إيران ما تحقق.

لقد مرت الثورة الإسلامية بمراحل عديدة، ورغم الصعاب التى قامت فى كل مرحلة، فإن الجمهورية الإسلامية التزمت منذ يومها الأول بضمان أوسع مشاركة جماهيرية فى إقرار السياسات عبر مؤسسات دستورية راسخة، وقد فعلت الجمهورية الإسلامية ذلك رغم كل الظروف الصعبة التى أحاطت بها، وعلى عكس ما جرى فى الثورات العلمانية الكبرى المعاصرة. وإذا كانت الجمهورية الإسلامية قد حققت بفضل الله استقراراً مكيناً، وحققت معجزة تنموية وقوة دفاعية مرهوبة ، وإذا كانت فوق كل هذا خلقت أمة جديدة تلتف حول ثقافة إسلامية واحدة، وحول أهداف حضارية إيمانية واحدة، فإن هذا كله يزيد قدرة النظام الإيرانى على تصعيد إنجازاته فى المرحلة القادمة، فى ضوء خبرة أعلى ومؤسسات أكفأ.

وضمن هذه المؤسسات مؤسسة «الولى الفقيه».. فهذه المؤسسة لن تكون فى المرحلة القادمة معرضة للإلغاء، إذ يظل دورها رئيسيا فى ضمان الالتزام بالمنهج الإسلامى الذى يقود الأمة وأجهزتها السياسية والتنفيذية، وقد جرى قبل الانتخابات العامة دعم هذه المؤسسة من خلال تعيين الشيخ رافسنجانى على رأس هيئة معتبرة تكون معينة للقائد الخامينئى ومشيرة قبل اتخاذه القرارات العليا.

وبالنسبة للرئيس المنتخب السيد خاتمى، فإنه مقدر لدور الفقيه فى ضمان الالتزام الإسلامى للدولة، وقد سمعته يعبر عن ذلك بأن «الولى الفقيه هو الجسر الذى يصل بين الإسلام والجمهورية».

ومفيد أن نذكر أن السيد خاتمى ليس من المعتدلين كما يشاع (خاصة ومصطلح المعتدلين أصبح سيىء السمعة حسب تفسيراته الأمريكية الشائعة عندنا)، فقد كان قياديا فى «روحانيون مبارز»، وهى هيئة العلماء الإسلاميين التى انشقت عن التنظيم الأم «روحانيات» على أساس أنهم (أى روحانيون) الأكثر راديكالية

والأقرب إلى خط الإمام الخوميني، وبالمناسبة فـإنهم حين انشقوا وأعلنوا تنظيمهم المستقل (١٩٨٥) أصدر الإمام الخوميني بيانا يدعمهم.

خاتمى ليس معتدلا إذن وفق المصطلح الأمـريكي (أى ليس متساهلا فى الموقف من الشـيطان الأكبـر أو فى الإصلاح الثـورى لشـئون الأمـة)، فهـو تاريخيـا مع استمـرار الموقف الثورى ضد دول الاستكبار.. وقـد كان مع زيادة سيطرة الدولة على النشاط الاقتصادى، ومع المساندة القصوى للمستضعفين.. إلا أن أصحاب هذا الاتجاه وعلى رأسهم ميرموسوى (رئيس الوزراء خلال الحرب العراقية الإيرانية) طوروا أفكارهم فى التنظيم الاقتصادى وأصبحوا مؤيدين لما قام به الرئيس السابق رافسنجانى.. ولذلك لم يشـمل البرنامج الانتخابى لخاتمى بنودا اقتصـادية، اكتفاء بتـأييد سـياسـات رافسنـجانى (على عكس مـا فعـله منافسـه ناطق نورى الذى عـارض).. وقد أكسـبـه هذا دعم الجـماهيـر التى أصـبـحت فخـورة بانجـازات رافسنجانـى بعد أن بانت نتائجها.. ولـكن البرنامج الذى جعل خاتمى مـحل إجماع كان يـركز على زيادة الحـريات السيـاسيـة والفكرية وفتح الطريق بدرجـة أوسـع لوصول الأكفـأ إلى مواقع السلطة والقرار.. وهذا وذاك كـان يلبى حاجات التغـيير المطلوبة، وكما يتطلع إليهـا الشباب والنساء والمثقفون وكل أبناء الأقليـات (العرقية والمذهبية) التى كانت محل ريبة وتهميش نسبى فى مراحل الثورة السابقة.

وكل هذا البـرنامج المركز على التنمـية السـياسـية (كـما يقول)، وعـلى إعادة تشكيل النخبة الحاكمة، لايتعارض -كمـا أشرت- مع توجهات القائدين التاريخيين للدولة الإسلامية فى مرحلة ما بعـد الخوميني.. ولكن مؤكد أن الشعب الذى دخل الساحة بقوة من خلال الانتخابات الحـرة، والذى أدخل معه السيد خاتمى، سيكون عامل ضـغط مؤثرا من أجـل الإسراع بالتطوير المطلوب.. والحـقيـقة أنه حـضور وضغط جاء والحمد لله فى الوقت المناسب، ولكن لا أظن مع هذا أن مؤسسة الولى الفقيه ستسمح بأن يصل ضـغط بعض الفئات المتطرفة إلى تهميش دور المحافظين

الذين سقطوا فى انتخابات الرئاسة، فالمبدأ الحاكم فى إدارة السياسة الإيرانية يحرص على استمرار التعددية ويحرص على التوصل إلى وفاق قومى عام من خلال الصبر والتنازلات المتبادلة.

إن نتائج الانتخابات الرئاسية جاءت نتيجة لتفاعلات طويلة أدت إلى بلورة وحدة عقلية ونفسية للغالبية العظمى من الشعب الإيرانى، وقد انعكس هذا فى نسبة الأصوات الكبيرة التى حصل عليها ممثل التجديد خاتمى، وهذه الوحدة للكلمة على أساس التجديد ترعاها القيادة العليا دعما وتطويراً لكل ما أنجزته الثورة.. فكيف يتصور البعض أن ما حدث فى الانتخابات قد يحدث ضعفا أو انحرافا عن المسار؟! هذا كما ذكرت سابقا مجرد هذيان!

إيران الإسلامية الآن سياسيا فى أقوى حالاتها والحمد لله.

أقول قولى هذا ثم أتساءل: أين حكومة مصر من كل هذه التطورات الجبارة فى إيران؟! هل هناك من يدرسها؟ وهل هناك من يفكر فى الاستفادة منها كى نخرج من الضياع الذى نحن فيه؟!

أسأل الله أن يهدى قومى.



الفهـــرس

الموضــــــوع | **الصفحة**

- بين يدى الكتاب.. ٥

*** الجزء الأول**

الرحلة الأولى

- ماذا فى إيران الإسلامية بعد وقف القتال؟ (١)................................ ٩
- ماذا فى إيران الإسلامية بعد وقف القتال؟ (٢)................................ ٢٣
- ماذا فى إيران الإسلامية بعد وقف القتال؟ (٣)................................ ٣٩

*** الجزء الثانى**

- لتكن خطبة الجمعة دعاء لقمة العرب وشرحا لغدر اليهود؟........................ ٥٣
- معجزات الثورة الإسلامية فى إيران
  وإنجازاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية.................................... ٦٧
- فى مواجهة إسرائيل.. هل نختار نموذج المكسيك؟ أم نموذج إيران؟............ ٨٧

*** الجزء الثالث**

الرحلة الثانية

- أهم من الإنجازات المادية فى إيران.. ماذا جرى للناس؟ وماذا جرى للفقه؟..... ١٠٧
- فى إيران الإسلامية يربون إنسانا متدينا
  يصمد فى النزال ويندفع فى البناء.. ١٢٥
- القيادة الإيرانية تحظى بقبول عام لعلمها وشجاعتها.. وأيضا لزهدها......... ١٣٩

الرحلة الثالثة

- بعد الانتخابات الإيرانية.. قيادة أقوى وإنطلاق سياسى واقتصادى أكبر....... ١٥١

* * * * *

رقم الإيداع: ١١٧٧٣/ ١٩٩٧

الكتاب والمؤلف

الأستاذ عادل حسين مفكر إسلامى له مكانه مقدرة بين المثقفين فى مختلف الأقطار العربية، وهو صاحب دراسات وكتابات مهمة فى الأمور السياسية (المحلية والعربية والدولية، وكذلك فى الأمور الاقتصادية والاجتماعية)، وكلها من منظور الإسلام ومخططات نهضته.. والأستاذ عادل يشغل الآن موقع «الأمين العام لحزب العمل».

وهذا الكتاب يقدم للقارىء «الجمهورية الإسلامية فى إيران»، فى وقت أصبح معروفا أنها نجحت بفضل الله فى الوصول إلى درجة رفيعة من القوة (سياسيا واقتصاديا وعسكريا)، والجمهورية الإسلامية تضع هذه القوة فى كفتنا ونحن نواجه الحلف الأمريكى-الصهيونى، وبالتالى أصبح واجبا أن نزيد معرفتنا بما جرى ويجرى داخل هذه الجمهورية المجاهدة.. إن هذا الكتاب يصدر فى الوقت المناسب.

والكتاب حصيلة دراسات شاملة وعميقة للكتب والتقارير الصادرة من أصدقاء الجمهورية الإسلامية وأعدائها.. وإلى جانب هذا فإن المؤلف استكمل تحليلاته وتقديراته عبر دراساته الميدانية داخل إيران، والتى حاور أثناءها كبار المسئولين والفقهاء والمتخصصين.. ويثبت كل ما جاء فى الكتاب قدر الجهود الهائلة والتضحيات التى بذلها الشعب الإيرانى لقيام جمهوريته، ولجعلها قلعة للإسلام والمسلمين.. ويثبت الكتاب كيف بارك الله ونصر هذه الجهود.

حقا لقد أعز الله إيران بالإسلام، وكذلك أعز الله الإسلام بإيران.



عادل حسين